# القسم الرابع

## الاستقلال وتصفية الامبراطوريات

تسلِّط هذه المجموعة الأخيرة بشكل رئيس الضوء على حقبة الخمسينيات وصولاً إلى السبعينيات، التي تشكل العقود الرئيسة للانسحاب الأوروبي في السيطرة السياسية على العالم غير الغربي. ومع ذلك، تمثل التغييرات السياسية للانسحاب المأساوية مرحلة واحدة فقط ضمن سياق طويل للتحول الثقافي الذي بدأ بمرحلة مبكرة واستمر في الربع الأخير للقرن العشرين. غير أن هذه الجردة ستتوقف بعدُ عاجزةً عند النقطة حيث يعطي البعد التاريخي المجال لوجهة نظر ضعيفة (وقصيرة النظر) للأحداث الجارية.

وكانت تصفية الإمبراطورية التغيير الأكثر مأساوية في هذه العقود. ففي أقل من ربع قرن، تخلى الأوروبيون عن معظم امبراطوريات ما وراء البحار التي استولوا عليها خلال أكثر من قرنين، وقد توقفت الامبراطوريات الأوروبية عن التوسع بعد بداية العشرينيات، عندما أعطت عصبة الأمم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية السابقة لبريطانيا وفرنسا كمناطق تحت الانتداب. وحتى قبل ذلك، كانت هناك إشارات قادمة عن تصفية الامبراطوريات. ففي عام ١٩١٧، وعدت بريطانيا الهند بالاستقلال في تاريخ مستقبلي غير محدد، ولم تحقق هذا الوعد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد أصبحت الهند وباكستان والفلبين مستقلة في السنوات الأولى للسلام، وعندما بدأت العملية تسارعت الخطوة.

وبالرغم من ذلك، لم تستمر مؤلفة حضارات العالم ولم يتغير توجه الحضارة بشكل رئيس في الغرب إلى الشرق، وقد كان لدى المدن الأوروبية والأمريكية ملاهي

السوشي والمطاعم التايلندية، كما توجد سلسلة مطاعم وجبات سريعة أمريكية في المدن الآسيوية، غير أن بعض سلسلة مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية ظاهرياً هي في الواقع يابانية، مع ذلك تحولت الثورة المستمرة من تكنولوجيا غربية أصلاً إلى تكنولوجيا عالمية الآن. وقد بدأت بالسفن التجارية والسكك الحديدية واستمرت من خلال السيارات والطائرات والتلفزيون والاتصالات عبر الأقمار الصناعية والعقود الإلكترونية الرخيصة والإنترنت.

وقد حصلت هذه التحولات على خلفية الأحداث الكبرى، كالحرب الباردة والثورة الشيوعية في الصين والتسارع الهائل لعملية التصنيع وعولمة اقتصاد العالم.

ويعد الاقتصاد الذي نواكبه الآن عالميَّ الانتشار بشكل متزايد ودولياً ومترابطاً. وليس التواصل فقط عبر الأعمال البنكية وأسواق الأسهم والتبادل التجاري بين المحيطات، وقد جذبت النماذج الجديدة أقليات جوهرية ومتنامية غير غربية الأصول إلى أوروبا وأمريكا الشمالية.

ولن تتعامل هذه البحوث مع هذه المظاهر الحديثة والمهمة من تاريخ العالم لكن من الأفضل الإدراك أنها بدأت فعلاً خلال العقود التي أصبح فيها معظم العالم، غير الغربي مستقلاً مجدداً.

## المقاومة غير الأوروبية والانسحاب الأوربي:

استخدمت كلمة «قومية» لوصف المعارضة السياسية للحكم الأجنبي، لكن هذه العبارة غامضة كغموض الإمبريالية. غير أن للقومية معنى مختلفاً قليلاً في أوروبا عن الإحساس بالتضامن من جانب الذين ينتمون إلى إرث ثقافي مشترك إضافة إلى هدف دمج أمتهم في دولة مستقلة. في وقت ما جاءت الدولة أولاً ثم أنشئت أمة ضمن حدودها، وفي أوقاتٍ أخرى، كان للمجموعة التي تدعي أنها أمة تنظيم سياسي قصير الأجل. ويعتبر إيمان الناس بتقاسم ثقافة مشتركة غالباً غير موضوعي وعابر، ويمكن أن تكون الأهداف السياسية التي تليه متنوعة بشكل واسع.

وكانت بريطانيا وأمريكا الشمالية تتقاسم عناصر ثقافية مشتركة في العقود السابقة، أكثر مما تقاسم الإيطاليون والألمان في أواسط القرن التاسع عشر، إضافة إلى أن القومية الإيطالية والألمانية قادت إلى تشكيل دولة قومية جديدة بينما كان الشعور القومي خافتاً لصالح إعادة توحيد بريطانيا وكندا والولايات المتحدة بشكل أوضح، هناك شيء ضروري أكثر من التاريخ والثقافة المشتركة لإنشاء حركة قومية تنتج عنها.

وتعتبر مشاعر الثقافة والدين واللغة المشتركة في ظروف أخرى، وكذلك الهوية العرقية سبباً رئيساً للعنف بين الجيران. ولا تتشابه أسباب العنف العرقي مع أسباب العنف السياسي للقومية. وقد أكدت الأحداث الأخيرة في إيرلندا الشمالية ويوغوسلافيا السابقة ذلك. ولم تقتصر هذه الظاهرة بالضرورة على أوروبا وكان التاريخ الحديث لإسرائيل وفلسطين والصومال والسودان شاهداً على ذلك. لم يكن معظم الأوروبيين متجانسين عرقياً في القرن الثامن عشر، ولم تكن هناك فكرة إيجاد وحدة عرقية أقوى مما كانت عليه في الإمبراطورية العثمانية. وقد أشار أرنسب غيلز إلى أن الرغبة في الحصول على أمن ضمن الدولة كانت ضعيفة قبل انطلاق الحقبة الصناعية، وكانت من بين الذرائع الأخرى حول القومية في أوروبا. وأظهر آخرون الصلة بين القومية والتصنيع الناشئ في اليابان وأماكن أخرى.

لكن دور الحس القومي كان ضعيفاً ولم يؤد التشابه العرقي بالضرورة إلى إقامة دولة / أمّة، وشاهدٌ على ذلك الافتقار إلى الحماس في توحيد الولايات المتحدة وكندا. ولا ترتكز الدعوة إلى الاستقلال عن الحكم الأوروبي على الإحساس بالهوية العرقية.

ومن المؤكد أن اليونانيين في البلقان وغيرها الذين حددوا هويتهم كأمم أرادوا الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية، لكن معظم حركات الاستقلال عن الحكم الأوروبي أرادت الاستقلال بسبب الدول الاستعمارية القائمة. وحدها باكستان كانت من القلائل التي سعت إلى الاستقلال ضمن حدود جديدة واضحة. وقد وضعت

الدولة المُستعمرة وأتباعها خطة بعد الاستقلال بدأت بموجبها بناء دولة متجانسة عرقياً كما سنرى أمثلة على ذلك إندونيسيا وغانا.

في القرن العشرين كان القاسم المشترك للقومية في الدول اللا غربية، الدعوة لاعتراف دولي باستقلال الدولة، غالباً دولة مُستعمرة أنشأها سلطة أوروبية مُستعمرة ونادراً كيان سياسي من أي نوع مستعمر سابقاً. وكان الهدف المعلن غالباً استخدام الهيمنة على هذه الدولة للحصول على شيء أبعد غالباً أهداف مادية لإنتاجية أعلى واستهلاك أكبر وليس بروز جديد لأمة محددة.

وقد استخدم الزعماء غير الغربيين لحركات الاستقلال نمط القومية الأوروبية ونقلوا في أغلب الأحيان عن الحركات القومية الإيرلندية واليونانية. وتبنوا عبارة وطني للتنظيمات، مثل حزب المؤتمر الوطني الهندي (لاحقاً حزب المؤتمر)، وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي في جنوب إفريقيا. غير أن كلتا المجموعتين أيدت نشوء دولة مستقلة متحددة الأجناس. وكان للمجموعتين سجل طويل في مناهضة مصادر التضامن العرقي والديني. وقد طلب حزب المؤتمر الدعم من المسلمين والهندوس. وعارض حزب المؤتمر الوطني الإفريقي دائماً الانقسام العرقي الأبيض والأسود.

وقد أصبح تحديث حركات الاستقلال على نمط حزب المؤتمر الهندي وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي الأنجح بين كل الحركات السياسية المتنوعة التي عارضت الحكم الأوروبي، لكن المقاومة السياسية اتخذت عبر العقود أشكالاً متعددة.

وفي معظم الحالات بدأت المقاومة كمعارضة للغزو الأوربي، ثم تحولت إلى حركات احتجاج متنوعة متخذة أشكالاً متعددة وأهدافاً عديدة. وقد لاقت بعض هذه الحركات نجاحاً محدوداً وفشلت أخرى، لكن النجاح الباهر جاء مع الحركات الوطنية المعاصرة التي سيطرت عل دولة مستعمرة. وتشكل هذه الدول الغالبية العظمى للأمم المتحدة اليوم.

openkanali.com

## المقاومة الأولية:

ببساطتها، كانت المقاومة الأولى تشكيل تنظيم سياسي للمحافظة على استقلاله من تهديد الهيمنة الأوروبية. وفي عصر الامبراطوريات الأوروبية، كانت حروب الغزو تنتهي غالباً بنصر أوروبي عسكري يتبعه ضم المهزوم. لكن كانت عدة أشكال للغزو الأوروبي والمقاومة غير الأوروبية. كانت بعض عمليات الضم سهلة لكن تبعتها بعد ذلك حرب المقاومة الأولية. وعلى سبيل المثال، أرسلت بريطانيا عام ١٨٩٥ جيشاً صغيراً من مستعمرة الشاطئ الذهبي إلى مملكة أسنتة. وقد استسلمت أسنتة دون قتال وضمت وذهب الملك إلى المنفى. غير أنه بعد خمس سنوات، استطاعت زعامة أسنتة تنظيم حرب استقلال وصفتها بريطانيا بالتمرد لكنها كانت في الواقع حرب مقاومة أولية.

وحصل الشيء نفسه مع زيمبابوي الحالية. وفي عام ١٨٩٠، شنت شركة سيسيل رودس البريطانية الجنوب إفريقية حملة عسكرية على مقاطعة شونا المجزأة سياسياً الواقعة بين نهري ليمبوبووزامبيزي. وفي أواخر ١٨٩٣ احتلت قوات الشركة مركز مملكة Ndebele حول بولوايو. ولم تحدث أي معارضة للاحتلال في البدء، لكن النظام التابع للشركة أثار لاحقاً مقاومة إفريقية في صفوف الشونا وNdebele. وفي عام ١٨٩٦ - ١٨٩٧ اشترك الاثنان في انتفاضة عامة، وكانت المقاومة الإفريقية الأخطر التي واجهت الانكليز في إفريقيا الوسطى. وقد وصفتها الشركة بالتمرد واستدعت القوات الإمبريالية لقمعها.

وأدخلت المقاومة الأولية غالباً تحديث الدفاع الذي نجح في بعض الحالات كاليابان وسيام، وكخطوة متأخرة بعد حضور الغزو الأوروبي الحالي كما في فيلكا بمبا بعد سقوط الحكومة المركزية في تاوانثينويو. وفي حالات أخرى، توصلت الطبقة الحاكمة إلى تفاهم مع الحكام الجدد مما جعل الحفاظ ممكناً على شيء ما من هويتهم السابقة، إذا لم تكن كل سلطتهم السابقة. وتعتبر معظم الإمارات الهندية

أمثلة على التسويات المتنوعة بين السلطة المحلية والإمبريالية كما هو الحال بالنسبة لوضع المحمية لسلاطين المالاي أو حقوق الغاندا وفق اتفاق أوغندا.

وقد ورثت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة اليوم حدود دولة مستعمرة سابقاً، وليس حدود كيانات ما قبل الاستعمار، لكن القليل من المناطق التي خضعت للاستعمار، حافظت على هويتها وعلى أرضها الأصلية. ففي جنوب شرق آسيا، اعتبرت بورما وكمبوديا وفيتنام أمثلة، وكذلك ماليزيا وأندونيسيا وهي كيانات جديدة. وتعتبر حدود معظم دول إفريقية شبه الصحراوية جديدة مثل ليسوتو، بوتسوانا، سوازيلاند، رواندا، بوروندي وزنجبار التي خرجت من الحقبة الاستعمارية بهويتها القديمة. وتعد الكيانات الحالية نتاج تفاعل معقد لصنع القرار من قبل الأوروبيين وغير الأوروبيين في بداية ونهاية المرحلة الاستعمارية، هناك التي استلزمت غالباً فرصة لتغيير سهل وضع عند حصوله خريطة للعقود القادمة. وقد ناقشت الفصول السابقة هكذا مراحل في تاريخ أوغندا وماليزيا وجاوا. وفي بعض الأحيان، قاد خطر المقاومة الفاعلة إلى تنازلات أوروبية كما في بوغندا. وفي ظروف أخرى، طلب الأوروبيون من حلفائهم المساعدة في الحكم، ومثال على ذلك دول المالاي وجافا مع اختلاف في التطبيق في الحالتين.

واحتفظ المنحدرون من حكام موالين للاستعمار أحياناً بسلطة شبيهة في بعض المحميات، كالمغرب في حقبة ما بعد الاستعمار. غير أنه في معظم الدول غير الغربية قام جيل جديد من الوطنيين المجددين بتنحية السلطات التقليدية التي سيطرت بعد الاستقلال. وكان هذا السياق من الأحداث واضحاً في انتصار حزب المؤتمر الهندي على الدول البدائية المعترف بها. وفي السنوات الأولى للاستقلال سقط الحكام التقليديون من السلطة في تونس ومصر وزنجبار وأثيوبيا وأروندا وبورندي. واستطاعت المقاومة الأولية أحياناً الحفاظ بنجاح على هوية ما قبل الاستعمار خلال المرحلة الاستعمارية ونادراً ما حافظت على حكام ما قبل الاستعمار بعد الاستقلال.

## حركات مقاومة الاستعمار:

قفزت حركات مقاومة حائرة بين فشل المقاومة الأولية وانتصار القومية المتجددة. ولم يكن هؤلاء بقيادة الحكام السابقين أو القوميين المجددين الذين برزوا للسيطرة على دولة ما بعد الاستعمار. واليوم هناك ميل للتعاطف مع تلك الحركات من منظور ما بعد الاستعمار ببساطة كونها عارضت الامبرياليين، كما حصل مع الأوروبيين في أوج بناء امبراطوريتهم. واعتبرت أعمالهم كانتصار للحضارة في ما وراء البحار. وكان الحكم بسيطاً عندما لم يكن خطأ كلياً. كان العديد من قادة الحركات المناهضة للاستعمار غير أنانيين ووجهوا صراعهم لخدمة العدالة كما رأوا. واستخدم آخرون المعارضة ضد الامبرياليين كوسيلة للحصول على امتيازات لطبقتهم وعائلتهم أو جماعات خاصة مستفيدة في مجتمعهم، وبعضهم كانوا انتهازيين.

وكانت حركات الاحتجاج ضد الاستعمار متنوعة بحيث لا يمكن التطرق إليها إلا من خلال أمثلة مع التحذير أنها لا تمثل كل الاحتمالات ولا يمكن وضعها بشكل نموذجي. غير أن هناك ثلاثة نماذج من الاحتجاج تم اختيارها لتبرز حزءاً من المجموعة الواسعة من المعارضة شبه الوطنية الممكنة للحكم الأوروبي. وتمثل إحداها حركات احتجاج إصلاحية ترتكز بشكل واسع على الرغبة في إصلاح ظروف معينة. وتمثل الثانية بناء حالة لمعارضة الاحتلال الغربي بين سياسة أكثر إتقاناً. وتمثل الثالثة حركة بدائية ترمي إلى رفض العديد من مظاهر الثقافة والنفوذ الأوروبي.

## أشكال الاحتجاج:

### حركات الاحتجاج الإصلاحية:

ليس للتنوع الواسع لحركات الاحتجاج حدّاً في العالم الاستعماري، ويمكن إيجاده في أيِّ مكان ينظم الشعب أوضاعه نحو الأفضل، ويتضمن التحرك السياسي

والعرائض والحركات العمالية والإضرابات والمظاهرات وأعمال الشغب المنظمة وغيرها. وفي وضع استعماري تتضمن مثل هذه الحركات غالباً بياناً مناهضاً للاستعمار يمكن أن يخفي تنوعاً كبيراً من الأهداف الراهنة.

عام ١٨٩٠، في إفريقيا الغربية، حصل مثل هذا التحرك في الساحل الذهبي باسم منظمة حماية حقوق السكان الأصليين تقليداً لاسم منظمة الحماية الإنسانية للسكان الأصليين التي كانت ناشطة في بريطانيا في أوائل القرن. وكانت معظم الأراضي بوراً في أي وقت، في منطقة تعد فيها الزراعة المسيطرة الفلاحة المتناوبة. وقد استخدمت في الماضي وستستخدم مجدداً، لكن ليس هناك حالياً محتل واضحاً أو مالكاً بالمعنى الغربي للكلمة. ومنذ البداية، كانت حكومة الساحل الذهبي تواجه مشكلة في تحديد هوية المالك بحيث كان بمقدور العديد من الأفراد أو المجموعات المطالبة ببعض الحقوق في قطعة أرض معينة. وشكل ذلك مشكلة متكررة للحكومات كما رأينا في البنغال وآسيا الوسطى وغيرها. واقترحت حكومة الساحل الذهبي إعطاء كل الأراضي غير المستخدمة للعرش في مرحلة ما، وتقال هذه الكلمة للدولة المستعمرة، وقد أثار هذا الاقتراح معارضة متنوعة. وكان بمقدور الزعماء التقليديين المطالبة بهذه الأراضي المعطاة للعرش، كونها أساساً من أملاك الأجداد وهكذا يكونوا أوصياء عليها. وكان الفلاحون المطالبين الآخرين المحتملين والذين عملوا في هذه الأرض، لكن عندما انتهت عملية التبوير أصبح احتمال سماع أصواتهم أقلَّ.

ونظم عدد من الزعماء التقليديين مطالبهم بالعمل مع محامين أفارقة تعلموا في بريطانيا وشكلوا معاً منظمة حماية حقوق السكان الأصليين. وكان الاحتجاج فاعلاً على المدى القصير. وقد استأنفت الجمعية أمام القضاء البريطاني متخطية رأس الحكم في الساحل الذهبي، وقاموا بإرسال وفد إلى لندن ونجحوا في تعديل قانون الملكية المقترح لحماية حقوقهم بالأرض وليس حقوق المزارعين الحاليين.



Obeikandl.com

وكان هذا التحرك أول احتجاج واسع على صعيد المستعمرة ذات فاعلية سياسية في الساحل الذهبي وكانت له أهمية سياسية على المدى الطويل كبداية لتعاون منظم بين الزعماء التقليديين والنخب الاستعمارية المتغربة مما قاد عام ١٩٢٠ إلى تشكيل المؤتمر الوطني لإفريقيا الغربية البريطانية مع مشروع في المستعمرات الإفريقية الغربية. ولم يكن الاستقلال الفوري حلاً بدل الخطاب الوطني الرنان. وكان يطالب بأمور مثل التعليم وتطوير الاقتصاد ورفع مستوى الصحافة الإفريقية وحقوق ملكية الأراضي للأفارقة وإصلاح قضائي. وكانت هذه الإصلاحات ملائمة للنخب الإفريقية وليس للناس العاديين، لكن كانت لديهم نوايا تحديث استغلت لاحقاً من قبل حركة الاستقلال.

وعام ١٩٥٠ تطورت حركة إصلاحية من نوع آخر في أوساط الكيكويو في كينيا. ووصف الأوروبيون ذلك بالماما أو الوحشية الإفريقية. وتعود في عناصرها إلى الثقافة التقليدية للكيكويو لكنها شُكِّلت بشكل رئيس احتجاج على الشروط المفروضة على الكيكويو من النظام الاستعماري. وكان الاحتجاج الأكثر خطورة بسبب الاستيلاء على أراضي الكيكويو لجعلها مناطق للمستوطنين القادمين من أوروبا. وكان هذا الاحتجاج عنيفاً، بعكس منظمة حماية حقوق السكان الأصليين، وترجم بقوات حرب عصابات صغيرة تهاجم المعارضين الأفارقة وكذلك الأوروبيين. كان عبارة عن حركة استقلال لكنها فشلت في الحصول على دعم غالبية الكيكويو وحصلت على مساندة ضئيلة من الجماعات العرقية الكينية الأخرى.

أعلن البريطانيون حالة الطوارئ واستقدموا قوات أوروبية وسحقوا التحرك. وعلى المدى الطويل أسهم المارمار في انتصار القومية الإصلاحية في كينيا من خلال بروز الاستياء العميق من النظام الاستعماري، وكان درساً له تأثير مهم على الرأي العام البريطاني وعلى الوطنيين المتغربين الذين استولوا بشكل نهائي على الدولة المُستعمرة.

## بناء دولة لمناهضة الغرب:

وتتضمن هذه المجموعة الثانية من المقاومة عدة جهود لإقامة دولة جديدة بهدف مناهضة الحكم الأوروبي. وتتقاسم بعض العناصر في المقاومة الأولية وبعض عناصر التحديث القومي. ومع ذلك لم تكن أيٌّ من جهود بناء الدولة ناجحة، ولذا لم تحظَ باهتمام المؤرخين. غير أن الجهود المهمة التي باءت بالفشل هي دليل مهم بالتأكيد بالنسبة لعملية التغيير في المجتمعات الإنسانية. وتضمنت هذه المحاولات المبكرة بذور حركات الاستقلال اللاحقة.

وقد أعطت الفصول السابقة أمثلة على بناء دولة محمية ضمن ظروف أخرى وكان منها مقاومة الإنكا الجديدة وتكيف الياكي مع التنظيم القروي اليسوعي. وكانت شأن سانتا كروز دولة جديدة من المايا بشكل رئيس ومعهم اللادينو. ولم تستطع أيٌّ من الجهود تأمين اعتراف دولي لكن نتج عن المقاومات الثلاثة بضعة عقود من الاستقلال عن الحكم الأوروبي.

وقامت مجموعات غير غربية أخرى بالرد بالطرق نفسها، لكن وفق نقاط انطلاق ثقافية أخرى. وهناك مثلان إفريقيان شماليان متصلان ومهمان. وحصل الأول خلال الغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٤٠، وكان النسب عنصر مهم في التنظيم السياسي في المجتمعات الجبلية والصحراوية في شمال إفريقيا. وقد حددت هوية سلالات راسخة بالاسم الأول للجد كما في آيت عطا بني المغاربة البربر وبنو محمد بني العرب ويعني أبناء عطا وأبناء محمد. وكانت هذه السلالات وحدات سياسية فاعلة وسميت غالباً قبائل وقد استخدمت عبارة قبيلة بشكل خاطئ للمجموعات العرقية الصحراوية التي لديها حضارة مشتركة فقط.

وقد تنافست مثل هذه القبائل البدوية النسب، في جزائر ما قبل الاستعمار سياسياً وعسكرياً مع بني مشابهة في أوساط البربر والعرب. وتنافسوا أيضاً مع السلطة المعينة من قبل الأتراك من مراكزهم في المدن كالجزائر وأوران. وفي بعض

الأوقات قام سلاطين المغرب بتقديم مطالب مشابهة لسيادة عليا وقامت سلطات دينية عديدة بتقديم مطالب يتقاطع فيها الولاء والطاعة. ومن بين هذه المطالب كان الدور الشرعي المطالب به من بعض المتحدرين من سلالة النبي محمد ﷺ وزعماء الطرق الصوفية الدينية التي مارست نوعاً آخر من السلطة.

وفي عام ١٨٣٠، بدأت فرنسا غزوها لشمال إفريقيا باحتلال الجزائر وعزل الداي الذي كان يمثل سابقاً السلطة البعيدة في اسطنبول. ولم يكن لدى الداي أي تنظيم إداري منظم لحكم المدن بل علاقات رسمية مع مختلف السلطات التي حكمت هناك حالياً. وقد ورث الفرنسيون فقط السيطرة على مدينة الجزائر من خلال قبول استسلام الداي، وإذا أرادوا حكم المناطق النائية، عليهم إيجاد طريقة لفرض سلطتهم هناك، والتي شكلت سياقاً طويلاً سياسياً وعسكرياً ولم تستكمل حتى عام ١٨٦٠.

وكان أحد أشكال المقاومة التي واجهت الفرنسيين دولة جديدة أنشأت بما أصبح الجزائر الغربية. وكان عصب هذه السلطة الجديدة الطريقة الصوفية القادرية، الطريقة الأقوى في تلك المنطقة. وكغيرها من الطرق في شمال غرب إفريقية، لم يكن لديها سلطة دينية فقط على أتباعها بل نوع من السلطة السياسية أيضاً. وكان لدى القادرية، على سبيل المثال، قوى عسكرية تابعة تستطيع استدعاءها في حالات الصراع مع السلطات القبلية أو الطرق الدينية المنافسة.

وفي عام ١٨٣٤، أصبح شاب يدعى عبد القادر، يعدّ مؤسس الطريقة القادرية، الزعيم المحلي للطريقة وبدأ ببسط سلطته في أنحاء الجزائر الغربية، وقاتل لتوسيع سلطته على الآخرين في المنطقة، وقاتل الفرنسيين أحياناً. وفي عام ١٨٣٧، كان عبدالقادر ناجحاً إلى درجة دفع الفرنسيين لتوقيع معاهدة اعتراف بسلطته على منطقة واسعة مبعثرة، ولفترة، كان حاكماً أكثر فاعلياً لمنطقته مما كان عليه الداي، وقد أصبح فعلياً رئيس دولة جديدة لم تكن موجودة عام ١٨٣٠ عند وصول الفرنسيين.

غير أنه ابتداء من عام ١٨٣٩، كان عبد القادر مجبراً على خوض سلسلة من المواجهات العسكرية ضد الفرنسيين أدت إلى الاستلام النهائي عام ١٨٤٧. وقد برز نظامه السياسي الجديد كعنصر أساسي للمقاومة الأولى ضد الفرنسيين. ومع أنها لم تكن ناجحة على المدى الطويل، فقد أصبحت البُنى الإدارية التي أسسها عبدالقادر لمواجهة الفرنسيين بعد هزيمته، الأساس للإدارة الفرنسية للداخل.

وبرزت الحالة الثانية لبناء حركة مقاومة بعد قرن في جبال الريف في شمال المغرب، ومع أنه كان لدى سلطان المغرب إدارة حكومية أكثر صلابة من إدارة الداي في الجزائر، فقد عانى من نقاط ضعف مشابهة. وكان جزء فقط من الأراضي التي يحكمها معتبراً أرضاً حكومية بلاداً محصنة تحت الإدارة الحالية لموظفي السلطان. أما الباقي، فكان يعترف بسلطة السلطان لكنه لم يكن تحت سلطته القوية. وقد طغت هذه المناطق كبلاد سائبة، بلاد غير محكومة إدارياً، خلال سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، وعندما فرضت فرنسا وإسبانيا حمايتها على المغرب، كانت تسيطر بشكل فاعل فقط على المناطق التي كانت خاضعة للسلطان في الماضي محددة البلاد المحصنة خصوصاً بالمدن الرئيسة والسهول على طول شاطئ الأطلسي. أما بالنسبة للبلاد السائبة، المتبقية من وسط وجنوب المغرب، حافظ الفرنسيون على ما يمكن من النفوذ من خلال الاعتراف باسم السلطان بسلطة من كان يسيطر حالياً. وفعل الإسبان الشيء نفسه في الشمال. فقد سيطروا على مرافئ المدن مثل سبتا ومليلة، لكن داخل جبال الريف كانت البلاد السائبة، ولم يكن لإسبانيا سيطرة أكثر مما كان للسلطان في الماضي عليها. وقد انسلخت بعض البلاد السائبة في أقصى الجنوب وأصبحت جزء من الصحراء الإسبانية أو موريتانيا الفرنسية.

وقد برز جهد بناء الدولة في الريف من ارتباك النزاعات بين الأوروبيين والسلطان والسلطات المحلية المتمردة في أنحاء الإمبراطورية المغربية. في البدء في أوائل العشرينيات عندما برز عبد الكريم كزعيم لآيت وارياغال (التي تلفظ بطرق



obeikandi.com

مختلفة لأن اللغات البربرية كانت مكتوبة بالحروف العربية أو الرومانية) وكانت سلسلة الجبال الريفية تمتد إلى الجنوب من ساحل المتوسط وكانت فيها سكان بربر يبلغ عددهم ٦٠٠ ألف موزعين بين عدد من القبائل كانت آيت وارياغال أكبرها.

وكان عبد الكريم أفضل استعداداً من معظم زعماء القبائل. فقد درس الشريعة الإسلامية في تونس وعمل فيها بعد كصحفي وكقاضٍ للسلطات الإسبانية في شمال المغرب. وكانت خبرته في الخدمة الأوروبية مؤثرة في إقامة دولة الريف الجديدة التي سماها جمهورية الريف. وأعطى لنفسه لقب رئيس مع أنه اعترف بالسلطة النهائية للسلطان عندما يتحرر من السيطرة الفرنسية. وكانت نقطة انطلاقه التحالف القبلي، لكنه أضاف بنية إدارية على نمط المخزن المغربي، وبالفعل أسس لأول مرة إدارة مركزية على جزء من البلاد السائبة يترأسها مكان السلطان. وتبنى أيضاً الحداثة الإسلامية الممثلة بالطريقة السلفية التي عارضت بقوة نفوذ الطرق الصوفية الأقدم كالقادرية وطالب بالوقوف فوق الولاءات القبلية بالرغم من استخدامه لها كمواطئ قدم. وبدأ في الواقع كممثل عادي لتمرد البلاد السائبة وحاول التحرك نحو القومية الحديثة.

فشل، لكن جمهورية الريف في العشرينيات قامت مع ذلك بدفاع مؤثر. وبدأ القتال في صيف ١٩٢١ عندما قامت السلطات الإسبانية على الساحل بإرسال حملات عسكرية إلى الجبال. وكان لدى الإسبان قوة مؤلفة من ثلاثين ألف رجلٍ في مواجهة ثلاثة آلاف من الريفيين، لكنهم خسروا المعركة الحاسمة وأخرى عام ١٩٢٤ تاركين الريفيين في سيطرة كاملة على المناطق الجبلية. غير أن عبد الكريم شن عام ١٩٢٥ هجوماً باتجاه فاس في المنطقة الفرنسية وربما كان ذلك خطأه القاتل. وأدرك الأوروبيون الآن أن الريفيين ليسوا مجموعة متمردة من رجال القبائل تستطيع التحرك بسلام. وفي ربيع ١٩٢٦، قامت فرنسا بتعزيز حاميتها المغربية بحوالي أربعمئة ألف رجل بينما زادت إسبانيا قوتها المغربية بحوالي مئة ألف رجل. وبجيش يناهز الخمسمئة ألف رجل مساوٍ لمجموع سكان الريف، لم يكن

ممكناً للأوروبيين الفشل ضد جيش ريفي لا يتعدى ٧٥ ألف رجل، واستسلم عبدالكريم للفرنسيين في أيار ١٩٢٦ وأرسل إلى المنفى في جزيرة الريونيون في المحيط الهندي.

بالنظر إلى الماضي، يمكن رؤية حرب الريف غير مهمة نسبياً بحد ذاتها، لكنها كانت مع ذلك نذيراً لنهاية عصر الامبراطوريات الأوروبية. وفي عام ١٩٥٠، نجح الوطنيون الجدد لحزب الاستقلال من خلال عملهم مع السلطان محمد الخامس في تحقيق استقلال كل المغرب، وكما في الحرب الأنكو-بوير في الجانب الآخر من إفريقيا لعقود خلت، أظهرت حرب الريف أن ثمن كسب أو الحفاظ على الامبراطوريات في مواجهة قوى منظمة بأسلحة حديثة ازداد بشكل ملفت. ففي جنوب إفريقيا، كان على بريطانيا استخدام جيش مؤلف من خمسمئة ألف رجل في مواجهة قوة محلية من ٦٥ ألف رجل، لأن البوريين حصلوا على أحدث الأسلحة الأوروبية، وكانت خطط حرب العصابات مهمة أيضاً كما في الريف. لكن كان للأسلحة حساب أيضاً، ففي آخر حملة ضد المجموعات المشابهة، استولى الإسبان وحدهم على ٢٢٠ رشاش وحوالي مئة قطعة مدفعية وأكثر من ستة آلاف بندقية.

## ردة فعل السكان الأصليين:

أحياناً قمت بتسمية نوع آخر من حركات مقاومة الاستعمار بالأصلية، وأحياناً الحركات المنبعثة، وأحياناً ردة الفعل الطوباوية. وتعد هذه الحركات متنوعة لكنها تتميز عن بعضها بشكل واسع من خلال أهدافها وبشكل أدق بما ليس من أهدافها. ولم تكن ترمي إلى تأسيس أشكال جديدة من الحكم قادرة على التحديث الدفاعي، هدفت نادراً إلى تحديث من أيِّ نوع. وكان جهدهم الأساسي يتركز على طرد الأوروبيين البرابرة إضافة إلى تأثير الثقافة الأوروبية في كل مظاهر الحياة، وقد فشل معظمها وفشلوا لأنهم كانوا يفتقرون إلى التقنية العسكرية والمنظمة التي منحت الأوروبيين تفوقاً.

وفي كتابه «رسل التمرد»، كتب ما يكل أداس تاريخ مقارن حول خمس حركات تنسجم مع هذا النوع. وتمتد هذه الحركات من حرب جاوا ضد الهولنديين بين ١٨٢٥-١٨٣٠ والحركات المناهضة للأوروبيين في نيوزلندا في عام ١٨٦٠ إلى حركة في الهند الوسطى الشرقية في نهاية القرن وأخرى إفريقية الشرقية الألمانية بين ١٩٠٥ - ١٩٠٦ نزولاً إلى التمرد المناهض للإنكليز في بورما عام ١٩٣٠، وكان العديد من الثورات من هذه السلسلة صعباً ومكلفاً في قمعه، لكن القليل منها هدد بشكل جدي القوة الأوروبية ولم تستطع أيٌّ منها الوصول إلى إقامة دولة قابلة للحياة بدرجة الاعتراف الدولي الذي حصلت عليه مملكة هاواي قبل ضمها.

وكانت ثورتان في هذه المجموعة خطرة إلى حد إنذار الرأي العام الأوروبي على الأقل في المدى القصير. وكانت الأولى التمرد الكبير في سهول الغائج الهندية عام ١٨٥٧، وكان هذا التمرد خطراً لأن قسماً واسعاً من جيش البنغال تمرد ضد ضباطه الانكليز مما أعطى للمتمردين قيادة جيش حديث على النمط الأوروبي. وكان العصيان العسكري مترافقاً مع متمردين مدنيين الذين كانوا مهتمين بشكل خاص في دولة إيتار براديش الحالية التي تحتل سهل الغائج المنحدرة من دلهي. وخلال حصوله، جمع التمرد مصادر عديدة ومتنوعة من الاستياء ضد الحكم البريطاني في صفوف الأمراء، والفلاحين، والهندوس، والمسلمين، والمعنيين، والريفيين. لكن المتمردين فشلوا في تطوير تنظيم مركزي، ولم يكن للحركة هدف مشترك بمعزل عن الرغبة الجامحة لإعادة بناء إمبراطورية المغال.

وسارع الانكليز إلى إرسال تعزيزات ضخمة وحافظوا على ولاء القوات الهندية في جيوش مقاطعات بومباي ومدراس والأكثر حسماً، وحافظوا على مساندة قوات السيخ في المناطق الخاضعة حديثاً في الشمال الغربي، وتقريباً في كل مكان في الهند، حافظ الانكليز على دعم جوهري من عناصر مهمة من السكان الهنود، خاصة في البنجاب في الشمال الغربي وفي البنغال نفسها حول كالكوتا، وفي نهاية عام ١٨٥٨ كانوا ناجحين في سحق القوة المتمردة الرئيسة، وأخذوا بعين الاعتبار جدّياً

خسائرهم والدروس التي استخلصوها من التمرد، قادت إلى إعادة تنظيم منهجية للحكم البريطاني للهند بما في ذلك الإلغاء الرسمي الإمبراطورية المغال وتصفية شركة شرق الهند التي ظلت طيلة قرن تمارس حكماً مباشراً على الهند البريطانية باسم العرش.

وكانت الحركة الأخرى المؤثرة نسيجاً من الأحداث المترابطة في الصين عام ١٨٩٠، ووصف الأوروبيون المسألة تمرد الملاكم لكنه لم يكن تمرد بقدر ما هو انتفاضة شعبية رعاها فيما بعد عناصر مناهضة للأجانب من المحكمة الصينية.

وأصبحت آخر وأوسع حرب مقاومة تخوضها الإمبراطورية الصينية في قتالها ضد الأوروبيين قبل إلغائها عام ١٩١٠.

وفي عام ١٨٩٠، تزايد الشعور الشعبي المناهض للأجنبي طيلة نصف قرن أو أكثر. وكانت قاعدته التنظيمية على المستوى المحلي تقليداً صينياً قديماً لجمعيات سرية، وفي هذه الحالة المميزة جمعية باسم ياباني ترجمه الأوروبيون كجمعية المصارعين المستقيمين والمنسجمين لهذا ملاكمين. ودعت الجمعية إلى المعتقدات القديمة حول قيمة المساعدة الخارقة من خلال الدين والسحر مدموجة بتقليد قديم من العناوين الحربية، مثل الكونغ فو وغيرها، التي انتشرت بشكل واسع في العقود الأخيرة. وكانت الأتباع الأكثر نشاطاً من الطبقات الدنيا من المجتمع الصيني؛ لذلك تمتع الملاكمون بقدر من التسامح والسيادة من قبل عناصر نافذة من البيروقراطية. في النهاية، أُخذت حركة الملاكمين بعين الاعتبار، واعترفت بها المحكمة وقاد ذلك إلى إعلان حرب صينية رسمية ضد الأجانب.

وقد بدأت المرحلة الأكثر نشاطاً النشاط الملاكم في أواخر ١٨٩٩ مع موجة من العنف المناهض للأجنبي والمسيحي بما في ذلك تدمير واسع لمراكز البعثات وقتل المسيحيين الصينيين خاصة في شمال الصين. ولجأ الأوروبيون هناك إلى مستوطنات محمية خاصة في بكين ومرفأ مدينة تيانجين حيث حوصروا. وبعد فترة

من القتال الصعب، قامت حملة عسكرية دولية تضم اليابانيين والهنود والأمريكيين بدفع الحصار عن بكين واتخذاً إجراء سلمي. ولعب الجيش الصيني دوراً مشبوهاً مع بعض السلطات المحلية محافظاً على السلام رغم قرار اللجنة بالحرب، وهربت اللجنة الصينية لفترة إلى غرب الصين، تاركة الأجانب أحراراً في نهب وإحراق القصر الصيني كما فعلوا سابقاً خلال القرن، وفي بداية عام ١٩٠٢، عادت اللجنة إلى بكين تحت غطاء رؤية مخترعة ملائمة «أن الحرب كانت فقط تمرد شعبي».

وكانت قضية الملاكم في بعض ملامحها مشابهة لعودة MEIJI، وبدأ كلاهما في الدعوة لدعم الملكية وإقصاء البرابرة، غير أن هذه الحركة بعكس زعامة الميجي MEIJI لم يكن لديها برنامج تحديث دفاعي أو غيره. وتقدر الجيوش الأجنبية التي قمعتها بأقل من خمسين ألف رجل. وكانت من حيث مظهرها العسكري أضعف وأقل تنظيماً من التمرد الهندي عام ١٨٥٧ لكن كانت مشابهة إذا عدنا إلى وضع سابق من الأمور الحقيقية أو الخيالية. على سلم من التنوع من البراغمانية إلى الطوباوية، كانت قضية الملاكم مسافة معينة عن التطرف البراغماتي وأيضاً بعض المسافة عن الطوباوية المتمثلة بحركات ألفية وضعت إيمانها بتوقع تدخل كوني لم يصل أبداً. وسيجري التعاطي مع حركات من هذا النمط في الفصل التالي.

## جذور الانسحاب الأوروبي:

احتوى الانسحاب من الإمبراطورية - أصولاً أوروبية وغير أوروبية - من خلال أي مؤشر للإنتاجية الاقتصادية، كان الغرب في نهاية الحرب العالمية الثانية قوياً جداً مقارنة مع بقية العالم كما كان دائماً، بالرغم من ذلك، تخلى الأوروبيون عن المناطق المحتلة خلال عقود قليلة مع بعض الصراعات الخطرة بعد استخدام الكثير لغزو أكثر من نصف العالم.

وكان جزء مهم من التفسير عسكرياً. فقد خرج الغرب من الحرب العالمية الثانية أكثر قوة من أي وقت مضى لكن الفائدة النسبية التي تمتع بها في القرن التاسع عشر ذهبت إلى الأبد.

وفي رسالة هيلاري بيلوك الشهيرة، «مهما حصل، حصلنا أعظم سلاح ولم يحصلوا عليه» كانت السلبية الأخيرة مهمة ولكنها مؤقتة. فقد غزت القوات البريطانية والفرنسية المؤلفة بشكل رئيس من فرق إفريقية مجمل غرب إفريقيا بقوات يتعدى تعدادها نادراً ألفي رجل كل مرة، وكانوا مجهزين بأسلحة رشاشة وكانت المعارضة مسلحة بأسلحة تشحن من الفوهة إذ كان لديهم أسلحة أصلاً، بعد ثلاثة عقود، امتلكت المعارضة أيضاً أسلحة رشاشة وهزموا فقط بالتفوق العددي الهائل، وكانت الميزة المتشابهة للثوار المعارضين للجيوش الحديثة تتمثل بالاستمرار في حروب التحرير مثل الجزائر والهند - الصينية.

في أواخر السبعينيات، كانت الولايات المتحدة تمتلك القدرة على النصر في نهاية حرب فيتنام، لكن ثمن النصر الآن كان أكثر تكلفة وكانت الأهمية المتعلقة بحياة القوات الغربية أكبر مما كانت عليه في مرحلة بناء الإمبراطورية، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة بدفع ذلك الثمن وحتى قبل تجربة فيتنام، وقد توصل الفرنسيون والألمان والانكليز إلى نتيجة مماثلة في ظروف مماثلة.

لكن القرار السياسي بالانسحاب دون أي إمكانية عسكرية متاحة، كانت له أيضاً جذور في الرأي العام الأوروبي، وخلال عصر الامبراطوريات الأوروبية، عارضت بعض الانتقادات بالدرجة الأولى وجود مستعمرات، وضمن سياسات التقدم الإمبريالي كانت معظم الحكومات المركزية في أوروبا معارضة بشكل علني لضم مناطق ما وراء البحار معظم الوقت، وكانت معظم عمليات الضم في ترتيب الأقليات المرموقة وفي بعض الأوقات مدعومة في نعرة وطنية مفرطة، وكانت التكلفة الضئيلة وسهولة بناء الإمبراطورية ترجح دائماً كفة الميزان.

وكانت لدى بعض الدول الأوروبية خيوط مميزة من الرأي العام المناهض للإمبريالية، ففي فرنسا، كان هناك إيمان سائد بأن دور فرنسا الحقيقي وعظمتها الوطنية تستند على دورها كزعيم للقارة الأوروبية وتتعارض مع تبديد الموارد في مغامرات إمبريالية بعيدة، كان هذا الرأي المسمى غالباً القارية، قوياً إلى درجة في

وقت لآخر عند اليمين السياسي خاصة عام ١٨١٧ عندما أدت خسارة الألزاس واللورين لصالح الدولة الألمانية الجديدة ببعض الفرنسيين إلى اعتبار بناء إمبراطورية ما وراء البحار شبه خيانة. وكان هناك رأي مشابه بارز في الستينيات (١٩٦٠) عندما كانت فرنسا على شفير حرب أهلية بالنسبة للتسوية مع الجزائر. في هذه الحالة، كان اليسار بشكل رئيس مؤيد للسلام، وأراد الجيش وبعض اليمين الحفاظ على الجزائر فرنسية بأي ثمن. وكان شارل ديغول الذي جمع الشعور القاري واعداً بأن فرنسا ستقلل من خسائرها في الجزائر بهدف استعادة دورها الرئيس في زعامة أوروبا.

وكان لدى بريطانيا نوع آخر في المناهضة السياسية للإمبريالية يرتكز على تجربتها التاريخية التي تعود إلى خسارة المستعمرات التي أصبحت الولايات المتحدة. فبعد الغضب الأول والخيبة، كان واضحاً أن الخسارة لم تكن خطرة اقتصادياً واستراتيجياً. ففي منتصف القرن التاسع عشر ظهر أن بريطانيا هي أرخص سوق للشراء وتبيع ما هو أضخم بمعزل عن السيطرة السياسية. وقد ضعفت مقاومة منح الحكم الذاتي لأستراليا وكندا ونيوزلندا خلال القرن، مع توقع أن هذه المستعمرات المستوطنة ستنسلخ بشكل طبيعي عن الشجرة الأم عندما تصبح جاهزة للاستقلال.

وكانت العنصرية العلمية المزيفة قوية جداً في أواخر القرن التاسع عشر حيث توقع قليلون أن تكون الهند وسيلان ونيجيريا مستعدة للاستقلال في المستقبل القريب، لكن حصل ذلك في تاريخ مبكر. وكان الهدف المعلن للسياسة البريطانية منذ ١٩١٧ حكماً ذاتياً هندياً واستقلالاً نهائياً. وأضيفت إفريقية الغربية الاستوائية عام ١٩٤٥ بالرغم من أن الأكثر تفاؤلاً توقع أن تأخذ عملية الاستحقاق وقتاً أطول مما أخذت.

وقد تعمقت الحركات المناهضة للإمبريالية الأخرى في أنحاء أوروبا، وعندما وضحت تكاليف الإمبراطورية، عارضت أقلية بارزة في كل سلطة إمبريالية دفع الثمن. على صعيد اليسار السياسي، كانت الاعتراضات الاقتصادية أكثر تفصيلاً

وأوضح. وحتى في القرن التاسع عشر، عارضت تيارات الاشتراكية السلمية المغامرات العسكرية، وبعد عام ١٩٠٢ وظهور إمبريالية ج.أ. هبسون، أظهرت دراسة العلاقة بين الرأسمالية والإمبريالية شرارة جديدة، وكان الاشتراكيون الأوروبيون معارضين أكثر من أي وقت مضى لبناء الإمبراطورية.

ورجع نوع آخر من مناهضة الإمبريالية إلى الروابط الإنسانية بين المبادئ المسيحية وسياسة الدولة، وكانت هذه الروابط رتب الصف مهمة في الإلغاء البريطاني لتجارة الرقيق وتحرير العبيد. وتحرك شعور مماثل في البرلمان البلجيكي بسلخ دولة الكونغو المستقلة عن الملك ليوبولد ووضعها تحت سيطرة الحكومة البلجيكية. وقد أجبر التوافق الإنساني في الرأي العام الألماني والهولندي أحياناً إصلاح سياسات الدولة في إفريقيا الألمانية وجزر الهند الهولندية.

كان صعود وسقوط العنصرية العلمية المزيفة متقلباً لدى الرأي العام الأوروبي الذي شارك أولاً الرغبة في بناء إمبراطوريات ما وراء البحار ثم الرغبة في تصفيتها، ففي أوربا القرن التاسع عشر، ازداد الإيمان بالتفوق الثقافي الأوروبي مع تطور الصناعة الأوروبية، وصعدت العنصرية مع التعصب الثقافي وبين ١٨٩٠ - ١٩٠٠ كان التفوق العرقي للأوروبيين لا جدال فيه في أوروبا على الأقل، ولم تكن مصادفة كلياً أنها كانت ذروة مرحلة بناء الإمبراطورية ما وراء البحار.

وحصل تبدل مأساوي في ثقة الأوروبيين بالنفس بين بداية الحرب العالمية الأولى ونهاية الحرب العالمية الثانية. وقد بدأت الثقة العسكرية تهتز عند ما هزم اليابانيون روسيا عام ١٩٠٥ وقد أثار التدمير الواسع لليد العاملة في الحرب العالمية الأولى والهولوكست خلال الحرب العالمية الثانية الشكوك حول التفوق الأخلاقي الغربي. وقد أثارت خيبة الأمل الكبرى شكوكاً أخرى حول حقيقة استمرار التقدم المادي؛ لذا تأسس نوع جديد من التفاؤل المادي بعد عام ١٩٥٠.

وكان التحول في العقلية الغربية أكثر بعداً من مجرد الأخذ بعين الاعتبار الإمبراطورية ما وراء البحار، لكن توريطها كإمبراطورية تمثلت بوضوح بالتغير بين



obeikandl.com

ميثاق عصبة الأمم لعام ١٩١٩ وميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. وكان ميثاق عصبة الأمم كتب في وقت أعلن المنتصرون «حق تقرير المصير للأمم». وقد أعطت مع ذلك بعض الأراضي للقوى المنتصرة كانتداب بما في ذلك المستعمرات الألمانية في إفريقيا وميلانيزيا إضافة إلى المقاطعات العربية العثمانية السابقة في سوريا ولبنان والعراق.

وقد وعدت الدول الموافقة على انتداب عصبة الأمم حماية رخاء وتطور الشعور المحلية. لكن كانت الوعود الأكثر أهمية لما تبقّى في الخارج أكثر مما ضُمّ.

وقد كان محظوراً على الشعوب التابعة احتساء المشروبات الروحية واستثنوا من الخدمة العسكرية الإجبارية ولم يجر الإشارة للحقوق الإنسانية والسياسية. وكانت الأراضي العثمانية السابقة قطعاً تستعد للاستقلال وحتى دون جدول زمني.

وفي عام ١٩٤٥، أقامت منظمة الأمم المتحدة مجلس وصاية تبنّى قراراً واضحاً باستقلال كل المستعمرات في فترة محددة من الوقت، وحددت عشر سنوات للصومال الإيطالية على سبيل المثال، واعترفت بأنه ليس باستطاعة كل المستعمرات أن تكون جاهزة للاستقلال الفوري، وأنه ليست لديها سلطة حقيقة للإصرار على الاستقلال في كل مكان، لكن معنى تحقيق المصير كهدف تغير بشكل مأساوي.

## البحث عن استقلال قابل للحياة: أندونسيا:

في نهاية القرن العشرين، أنجز كل العالم الاستعماري السابق وضعه الجديد فعلياً باستقلال معترف به وعضوية في الأمم المتحدة. وقد تنوعت عمليات العبور نحو الاستقلال وبدت النتيجة حتمية الآن، لكن كانت طبيعة الوحدة المستقلة غير متوقعة في البداية.

وعادت بعض الدول المستقلة إلى حدودها السابقة للاستعمار مثل حالة المغرب. وأصبحت بعضها مستقلة ضمن حدود أوجدها الحكام المستعمرون، وسيتطرق الفصل التالي لموضوع غانا. وكان توجه آخرين نحو الاستقلال وفق ذلك الشكل ثم تفككوا كما انقسمت الهند البريطانية إلى الهند وباكستان وبنغلادش. وانقسمت

بعض الفيدراليات الإمبريالية مثل إفريقية الغربية الفرنسية وظلت أخرى موحدة مثل نيجيريا بعد حرب أهلية قاسية وتوصلت إلى حل.

ويعالج هذا الفصل والذي يليه الطرق التي اتبعتها هذه الدول المنشأة حديثاً والتي نجحت بطريقة ما لتصبح مستقلة نوعاً ما، بل دول معترف بها مع درجة من التساوي مع الدول الأخرى في النظام العالمي بعد الاستعمار. وتعد أندونيسيا وغانا أماكن مختلفة كثيراً وعالماً مميزاً استمر بقاؤه موضع تساؤل، وهي تصور بالرغم من ذلك الطرق التي نجحت بموجبها تحركات الأوروبيين والسكان في فترة قصيرة نسبياً لإقامة مجتمع سياسي جديد.

وقد أظهر التحرك نحو الاستقلال في أندونيسيا وغانا اختلافاً واضحاً وتشابهاً مذهلاً. وكان أحد التشابهات سطحياً، فقد ظهرت الدولتان في الأخبار عند الاستقلال، أندونيسيا عام ١٩٤٩ لأنها كانت أول مستعمرة سابقة في جنوب شرق آسيا تحصل على اعتراف باستقلالها بعد نزاع عسكري فقط. وكانت أكبر دولة برزت في جنوب شرق آسيا بحدود جغرافية وسكان متشابهين، وكانت غانا صغيرة مقارنة معها، لكنها كانت بارزة كونها أول الدول المستقلة حديثاً في إفريقية الصحراوية. وقد أثارت أندونيسا وغانا الانتباه بسبب زعمائهما المميزين في ذلك الوقت. وقد حكم سوكارنو جزر الهند الهولندية كدولة مستقلة وكوام نيكروما دولة الساحل الذهبي حتى إقصائهما عن السلطة من قبل الجيش، نيكروما عام ١٩٦٦ وسوكارنو عام ١٩٦٧.

وكان التشابه الآخر التراخي المبكر للحركات الاستقلالية الذي يعود في الحالتين إلى الفترة التي سبقت سيطرة الحكم الأوروبي بقوة. ويمكن إيجاد حركة استقلال واضحة في الساحل الذهبي عام ١٨٧٠. وكانت حرب جاوا ١٨٢٥ - ١٨٣٠ في أندونيسيا حركة قومية مبكرة وغير ناجحة، كما بدأ الغزو الهولندي لسلطنة أشية عام ١٨٧٣، واستمر في حرب طويلة دامت ربع قرن وانتهت بقمع المقاومة نهائياً عام ١٩١٠، من جهة أخرى فإن الهولنديين لم يكتشفوا أندونيسا الحالية حتى أواخر

١٩٤٠ بينما استكشفوا معظم المناطق الداخلية لغينيا الجديدة الغربية، وبالفعل عندما تخطت الحكومة الأندونيسية مزاعم الهولنديين عام ١٩٦٩ وأعطت المنطقة اسم جوا IRIAN JAWA، لم يكن الأوروبيون قد أنشؤوا إدارة دائمة في معظم منطقة الداخل، وهكذا ضمت أندونيسيا عام ١٩٧٠ بعض المناطق التي خضعت أولاً للحكم الأوروبي وبضع المناطق التي لا زال للأوروبيين مطالب حولها.

## انقسامات ثقافية وبيئية:

كان لكل الأرخبيل الهندي الشرقي شكل من الوحدة اللغوية في معظم المناطق الناطقة باللغة الأسترونيزية، لذلك لم تكن مفهومة بشكل متبادل، ويمكن إيجاد أعضاء آخرين من عائلة اللغات هذه بعيداً إلى الشرق في تاهيتي والجزيرة الشرقية شمالاً إلى تايوان وغرباً إلى مدغشقر. وكانت الاختلافات الثقافية ضمن هذه العائلة اللغوية كبيرة وكان الاختلاف الأول الأقدم والأكثر إلحاحاً بين مناطق قادرة على زراعة حقول الأرز والتي لا تستطيع.

وحيث يمكن زراعة الأرز، من الممكن زراعة ثلاث مواسم سنوياً في الحقل نفسه سنة بعد سنة. وكان استثمار اليد العاملة في الحقول وريّ الخناق هائلاً، لكن في مناطق الأرز المروي في أندونيسيا كانت اليد العاملة الضرورية للحفاظ عليها تستحق التقدير.

وكان معدل السكان الزراعيين في مناطق الأرز المروي في أندونيسيا في الستينيات حوالي ١٥٠ شخصاً بالميل المربع.

وبلغ المزارعون في المناطق التي يمكن زراعة الأرز فيها حوالي عشرة أشخاص فقط في الميل المربع، وكانت هذه المناطق عموماً مناطق غابات استوائية، حيث التربة فقيرة ومعظمها استوائي، وعندما قام المزارعون بقطع العشب وحرقه، أعاد الرماد مواد التغذية للتربة جاعلاً إياها صالحة مؤقتاً لزراعة النباتات. وخلال سنوات قليلة، استخدمت هذه المغذيات أو أتلقت وعادت الأرض ليكسوها العشب أو أصبحت الغابة مبورة لفترة قبل قطعها أو استخدامها مجدداً.



obeikandi.com

جعل هذا النظام الزراعي المعروف بتنوعه بين القطع والحرق والزراعة تحديد معيشة السكان مدعومة فقط من الزراعة ويعتقد البعض أن يكون منخفضاً ليبلغ عشرين شخصاً في الميل المربع. وإذا تم تخطي هذا الحد يمكن حصول ضرر دائم لا يمكن إصلاحه. كانت منطقة حقول الأرز مقتصرة في أندونيسيا في القرن العشرين على معظم جزيرة جاوا وبالي ولوبوك إلى الشرق. وكان هذا السبب الرئيس لتركيز الحكم الهولندي على جاوا وعاملت بقية الأرخبيل كجزر خارجية. عام ١٩٩٤، بلغ عدد سكان جاوا حوالي ٤٠ مليون نسمة أو ٨٠٠ شخص بالميل المربع بينما ضمت الجزر الخارجية ١٨ مليون نسمة فقط أو ٢٦ شخص بالميل المربع. وقد تشكلت في المناطق المدنية والمزارع الدائمة المزروعة بأشجار المطاط جيوب من المناطق السكانية الكثيفة لكن انقسام حقول الأرز كان رئيساً للعديد من التقسيمات الثقافية اللاحقة التي صنعها الإنسان.

وصف المؤرخون في وقت ما جنوب شرق آسيا منطقة لا حضارة كبيرة خاصة بها، منطقة استقطبت خلال قرون التأثيرات الثقافية من جيرانها، الصين إلى الشمال والمحيط الهندي إلى الغرب، ومؤخراً توصل المؤرخون إلى الاعتراف بأن الآسيويين في الجنوب الشرقي اهتموا بالاقتباس من الخارج كما فعل الأوروبيون خلال قرون، لكنهم كيفوا اقتباساتهم مع تقاليدهم الثقافية الحيوية المحلية.

وبالطريقة نفسها التي اقتبست بها جنوب شرق آسيا البوذية أو الإسلام، اقتبس الأوروبيون المسيحية من الشرق الأوسط بمزجها من مظاهر من الديانات المحلية القائمة. واستمرت المسيحية بالتحول في وطنها الأوروبي الجديد كما استمرت الأديان المقتبسة بالتبدل في جنوب شرق آسيا، ولم تعد الكاثولوكية في تيمور الشرقية بالضبط الكاثوليكية التي أدخلها المبشرون الدومينيكان في القرن السادس عشر أو الهندوسية في بالي التي حصلت عليها من الهند منذ زمن بعيد. وقد دخل الإسلام مع التجار عبر الخليج البنغال بشكل رئيس في القرنين الخامس والسادس

عشر، وتغيّر أيضاً وتكيّف مع الأفكار الدينية المحلية والممارسات وحافظ على الاختلافات المناطقية حتى داخل جنوب شرق آسيا.

وضعت التقاليد السياسية الهندية الأشكال الأساسية للنسب في أجزاء عديدة من جنوب شرق آسيا، لكن هذه الأشكال كانت أكثر أهمية واستمرت في مناطق زراعة الأرز المروي وليس حيث هناك إمكانية للزراعة البعل، وترك هذا الواقع توتراً مستمراً بين مناطق المستوطنين في السهول وسكان الجبال على حدود تايلاند، بورما وفيتنام، توتراً استمر حتى يومنا الحاضر، وفي الجزر، كانت التقاليد الملكية الأقوى والأكثر وجوداً في مناطق الأرز المروي في جاوا وبالي، وقد استلزمت محاكم منظمة وبيروقراطيات مركزية لكن باختلاف ضئيل على المستوى القروي باستثناء جباية الضريبة، وفي القرن الثامن عشر قام الهولنديون في جاوا باستبدال الملوك وحكموا عبر الإدارة المعينة من حكم الوصاية التي سخرت المؤسسات الجاوية فعلياً لمصالحها. وكانت بعيدة عن إقامة دولة بيروقراطية حديثة، لكن لم يستطع الهولنديون حكم جاوا بشكل مباشر كما حكموا الجزر المحيطية.

ومن الجزر المحيطية المؤلفة من سكان مبعثرين، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية وخليفتها Nethrlands indies غالباً راضية عن شكل أضعف من الحكم غير المباشر. وكان هذا الترتيب مفيداً سياسياً عبر استراتيجية فرق تسد باستخدام الجزر المحيطة ضد جاوا. كان هذا الأسلوب واضحاً في طريقة تنظيم Nether-lans Indies لقواتها في ثلاث قطاعات بعيدة عن الجيش الهولندي في أوروبا. تم تجنيد القطاع الأول في أوروبا من ألمانيا وغيرها ومن هولندا أيضاً. وتم تجنيد القسم الثاني في إفريقية بشكل خاص من شراء العبيد فيما بعد بإذن من القوى المستعمرة مثل بريطانيا. وتم تجنيد قطاع كبير آخر محلياً المسمى رسمياً Ambo-nese أو سكان الجزر الأخرى ويعني غير الجاويين وللسبب نفسه كان الجيش الهندي بعد تمرد ١٨٥٧ مجنداً بشكل رئيس من أجناس محاربة عاشت بعيداً عن

مراكز التجمع السكاني الهندي بما في ذلك Qurkas من خارج منطقة السيطرة البريطانية المباشرة.

## دور الإسلام:

بالرغم من الاختلافات الضخمة الموروثة من الماضي، كانت قوى التناغم الثقافي أيضاً تعمل منذ قرون، ومع أن التأثير السياسي والديني للغطاء الهندي أعطت درجة معينة من الثقافة السياسية والدينية المشتركة في معظم أنحاء مناطق الأرز المروي في جنوب شرق آسيا بما في ذلك أندونيسيا.

في القرنين الخامس والسادس عشر، انتشر الإسلام بشكل واسع وبسرعة أكثر في المناطق الأقل تأثراً بالثقافة الهندية. وحافظت بالي، الجزيرة ذات الطابع الهندي المميز على الهندوسية حتى يومنا هذا لكن أكثر من ٩٠ بالمئة من سكان أندونيسيا اعتبروا أنفسهم مسلمين. ونتيجة لذلك، تعتبر أندونيسيا اليوم الدولة ذات الغالبية المسلمة في العالم مع أنها الأكثر بعداً عن مكة.

وكما هو متوقع من أسلوب انتشار الديانات الأخرى في العالم، لم يكن الإسلام الأندونيسي مجموعة ثابتة وموحدة من المعتقدات ولم تكن معتقداته مشابهة لتلك الموجودة عند المسلمين في القاهرة أو بغداد. وكان الإسلام الأندونيسي منقسماً أولاً بالتمييز بين Santui abagan. وكان السكان المسمى abangan يتجهون بجذورهم نحو المناطق الريفية ويمزجون الأركان الأساسية للإسلام بمعتقدات هندوسية وبوذية متفرقة وآخرون لهم أصول أعمق في ديانات الجزيرة. وحددت santri وهي أقلية صغيرة نسبياً بالذين يأخذون الإسلام الرسمي بجدية أكثر وهم أكثر إيماناً بوصايا النبي. وتوجد santri أكثر شيوعاً في المراكز المدنية والتجارية وفي المناطق الساحلية من جاوا. مع أن التمايز بين Abangan - SANTIR كبير فإنه يستطيع أيضاً أن يصبح انقساماً لا يمكن تصوره، ويعتبر الإسلام الأندونيسي مجموعة من المعتقدات المختلطة من الصعب وصفها.



obeikandi.com

وتوجد بعض انقسامات الإسلام الأندنوسي في أماكن أخرى في أنحاء العالم الإسلامي، وتوجد الطرق الصوفية الإسلامية، الطرق هنا كما هي موجودة في تركيا والمغرب وتعطي المؤمنين ديناً أكثر انفعالية من الموجود عند علماء المدن. في نفس الوقت، انتشر الإسلام الإصلاحي في القرن العشرين في أنحاء العالم الإسلامي عموماً، وسعى إلى تطهير الإسلام من التراكمات غير الإسلامية، وواجه في بعض الأحيان تأثير الطرق الصوفية، ففي Netherland Indis كان مذهب إصلاحي ومجدد يسمى المحمدية مهماً بشكل خاص خلال القرن الماضي. لم يكن المطلوب فقط إعادة إسلام الأنديز إلى الخط الصحيح للمعتقدات والممارسات الموجودة في مكان آخر بل كان جزءاً من التحرك نحو إسلام متجدد ومن خصائصه العمل على تقبل اكتشافات العلم الحديث. ومن الواضح أن بعض الوطنيين الأندونيسيين مثل عبد الكريم في الريف طلبوا مساندة عناصر إسلامية مجددة في ظروف سياسية مختلفة كثيراً.

## مجتمع تعددي:

بينما كان النقض الهولندي تجربة مشتركة للجميع، ظلت الأندير الهولندية مع ذلك مجتمع مجتمعاً تعددياً بلغات وثقافات مختلفة. كانت بعضها ترتكز على اختلافات ثقافية محلية بين MINANDKABAU، الجاويين والباليين، وجاءت أقليات ثقافية أخرى من الخارج، وكانت الأكبر والأهم الصينية التي كانت تشكل ٣ بالمئة من سكان الجزيرة في ١٩٣٠، وكان الصينيون منقسمين ثقافياً، وكان المهاجرون الأوائل Hokkienese من جنوب الصين ومعهم لغتهم الأم التي كانت مختلفة عن MANDARIN و Lentonese. أصبحوا منذ ذلك الوقت Penana-kan ومختلطين ثقافياً مع السكان المحليين، وكانت الغالبية العظمى من المهاجرين رجالاً اتخذوا زوجات جاوية واستخدموا غالباً اللغة الجاوية بدل HOKKIENESE.

وقد اعترف بهم الهولنديون كجماعة منفصلة وأجبروهم على العيش تحت إشراف مسؤولين هولنديين في مراكز خاصة في المدن الجاوية، كانت مشاركتهم في

المجتمع الأنديزي أكبر مما يدل عليه عددهم. وكانوا يشكلون مجتمعاً مدنياً وتجارياً وكانت نشاطاتهم مهمة للاقتصاد الأنديزي.

كان الصينيون محسودين ومهابين من القطاعات الأخرى من المجتمع مثل المجموعات التجارية الغربية في العديد من المجتمعات حول العالم واستمر هذا التوتر بين الصينيين وآخرين في أندونيسيا بعد الاستقلال. غير أنه مع مرور الوقت، اندفعت المجموعة الصينية في عدة اتجاهات جديدة، وقد أعاد مهاجرون جدد إدخال عناصر صينية ضمن ثقافة Perenakan، وبعد سقوط الإمبراطورية الصينية عام ١٩١٠، شعرت المجموعة الصينية بالانتماء القومي الصيني، وقد ادعى انتصار الشيوعية الصينية عام ١٩٤٨ إلى ضغوط سياسية جديدة. وبسبب ثرائها النسبي، استطاعت الجماعة الصينية الاستفادة المقدمة في المدارس التبشيرية المسيحية، وهكذا توجهت جماعة Penanaken القديمة تدريجياً نحو انجذابات تغير الوطن الصيني وأصبحت في اتصال أقرب مع ثقافة القرن العشرين الأوروبية.

وكان الهولنديون عنصراً غريباً آخر في مجتمع الأنديز. وفي بداية الحرب العالمية الثانية، كانوا يشكلون فقط واحداً بالمئة من مجموع السكان، لكنّ ثروتهم وقوتهم جعلتهم مهمين، وكانت نسبتهم كبيرة نسبياً للعالم الاستعماري، مساوية للوجود البريطاني في كينيا وأكبر من الوجود البريطاني في نيجيريا والهند ولكن أقل من الوجود الأوروبي في الجزائر وجنوب إفريقية.

وكان الهولنديون منقسمين داخلياً مثل الصينيين، وقامت مجموعة مساوية للصين PERANAKAN يجعل جزء الأنديز وطنها، وخرج آخرون إلى الجزر لعدة سنوات وعادوا إلى أ وروبا في نهاية المطاف. وقد وصل الهولنديون غالباً مثل الصينيين غير متزوجين مما زاد الجماعة الأوروبية الآسيوية بشكل كبير، لكن الغالبية الكبرى تحددت من خلال أجدادها الهولنديين، وسعوا إلى تعليم هولندي وشددوا على إرثهم الهولندي، ومع ذلك فإن الهولنديين في أوروبا احتقروهم.

## الاندماج الثقافي والاجتماعي:

أصبحت بعض مظاهر التعدد الثقافي أكثر حدة خلال النصف الأول من القرن العشرين بينما تضاءلت المظاهر الأخرى، وقد قدم الوجود الهولندي نظاماً سياسياً حصل ضمنه العديد من أشكال الاندماج الاجتماعي والفكري والثقافي.

وكان هذا المزج جزئياً الصيغة الأنديزية للانسجام الشامل للثقافات الحاصل في كل مكان خلال القرن العشرين، لكن كانت بعض المظاهر خاصة بجزر الأنديز الهولندية.

وكانت اللغة مصدراً أساسياً للوحدة والتفرقة على حد سواء، وكانت اللغة الجاوية بالطبع اللغة التي يتحدثها العدد الأكبر امتعض منها بعضهم لهذا السبب فقط، وكانت الهولندية لغة تعليم النمط الغربي، وكانت مستخدمة بشكل واسع من طاقم متنامٍ من موظفي الحكومة، غير أنه منذ بداية القرن، كانت لغة التجارة الشائعة لغة شبه جزيرة مالاي مع أنها كانت اللغة الأم لعدد قليل من السكان في جزر الأنديز الهولندية.

وكانت مفيدة بسبب ارتباطها باللغات الرئيسة لكل الجزر ولم تكن اللغة الأم لجزء كبير من السكان، وكانت أكثر حيادية ومقبولة من الجاوية، من هذا الجانب، كانت مشابهة للغات أخرى تجارية ناجحة أصبحت Lingua firance في منطقة واسعة والسواحلي في شرق إفريقية على سبيل المثال. وكانت لغة المالاي منتشرة عند الاستقلال وأعلنتها الحكومة ببساطة اللغة الوطنية وأعادت تسميتها بالأندونسية.

وكان الدين مشكلة أخرى في الاندماج الاجتماعي والثقافي. وفي القرن التاسع عشر، شكك الهولنديون بالإسلام نقطة تجميع ممكنة للاحتجاج لكن بعد نهاية القرن تحولوا إلى تشجيع الإيمان وأن الإسلام أفضل من الإلحاد وأملوا بكسب علماء المسلمين الكبار. وظلوا معارضين للحركات الإسلامية السياسية لكن المزج بين التشجيع والحياد جعل من الممكن انتشار الإسلام في الأجزاء الأقل إسلاماً من المستعمرة.

واستخدم الهولنديون أيضاً أسلوب التعليم الغربي كسلاح ثقافي يهدف إلى جذب القطاعات الأكثر ثقافة من المجتمع نحو النظرة الغربية للعالم، ليست المسيحية بالتحديد بل العلمانية بدل الإسلامية، ففي جاوا، حيث يعتبر نمط التعليم الغربي الأكثر توافراً، عمل العديد من رجال طبقة النبلاء على دخلوا نخبة جديدة من الأشخاص المتعلمين. وعملوا على فصل أنفسهم عن قيم آبائهم وطلب نوع من الوضع الاجتماعي مشابه للذي أعطاه التعليم للهولنديين، وطلبوا قبل أي شيء، وظائف حكومية ولم تكن لديهم أوهام عندما لم تستطع ثقافتهم تأمين النشاط الاجتماعي الذي ظنوا أنهم يستحقونه.

وعكست هذه التطلعات تقليداً جاوياً قديماً عن بروز في المجتمع من خلال خدمة الحكومة. في الماضي، كانت المحكمة تؤمن الفرصة وكانت اليوم البيروقراطية، ولا يعد المال مهماً لدى النخبة الجاوية كما هو في الجزر المحيطة حيث تمثل الثروة أسلوباً طبيعياً للوصول إلى السلطة والمركز. ويوجد لدى التجار الصينيين في جاوا المال وليس المركز. وبالنسبة لبعض الجاويين، كان التعليم طريقاً إلى السلطة عبر الحكومة، أولاً: بدأ الهولنديون بتشكيل هذه النخبة داخل الحكومة القومية عبر تحديث البيروقراطية في أندونيسيا مستقلة. وفي كلا الحالتين، لم يكونوا معادين للاشتراكية.

وكانت تصرفات النخبة في الجزر المحيطة مختلطة ومختلفة عن تلك في جاوا. وسمحت السلطة لهم وفق أشكال غير مباشرة للحكم أكثر من جاوا، ووجدت النخب غير الجاوية من الممكن استخدام سيطرتها على الأرض لإدخال نشاطات مقاولات متنوعة مثل النوع الذي تُرك للصينيين في جاوا. ومن الممكن سحب التناقض، لكن الزعامة في الجزر المحيطة كانت مهتمة بالحفاظ على موقعها السياسي الموروث وأكثر اهتماماً بتملك الملكية عوضاً عن مراكز في القيادة.

وقد أدى النزاع بين هذه التصرفات إلى تلبيد العلاقات بين المناطق الأندونيسية قبل وبعد الاستقلال.

## استياء الفلاحين:

كانت النخب في جاوا وأماكن أخرى منفصلة عن جموع الفلاحين باختلافات ثقافية جوهرية في المراكز والثروة. كان استياء الفلاحين متكرراً وواسعاً ويعود إلى الفترة ما قبل الاستعمار، وقد زعمت القيادة الإسلامية أحياناً أن طبقة الفلاحين تخصه، وفعل الزعماء الوطنيون الشيء نفسه. وحاول الشيوعيون أحياناً كسب طبقة الفلاحين وفي وقت آخر اعتمدوا أكثر على الطبقة العاملة المدنية قاعدة أساسية لهم. ولم تكن الاستراتيجية تعمل بشكل جيد ولم تعتبر تحركات الفلاحين دلالة على نمو الاستياء الوطني.

تفاعلت بعض الحركات الفلاحية مع المشاعر الوطنية من المدن، لكن كانت معظمها نوعاً من حركة الاحتجاج كلية حتى قبل بروز القومية الحديثة، وحتى بعد ذلك، كانت الحركات الفلاحية موزعة وفق جذورها وطريقة حياة الفلاحين في جماعاتهم الخاصة.

وقد بدأ هذا التحرك في جاوا عام ١٨٨٠ بقيادة فلاح جاوي غير متعلم اسمه سوروتيكو سامني. وطلب سامني من أتباعه الانسحاب من المجتمع المحيط بهم ورفض دفع الضرائب وتنفيذ خدمات الدولة أو المشاركة في الصلاة وحفلات الزواج.

وقامت الحكومة باعتقال سامني وقادته ونفتهم من جاوا عام ١٩٠٧ – ١٩٠٨ لكن الحركة استمرت مع بعض النشاط خلال العقود اللاحقة، وكانت مسالمة كلياً، دون مواصفات معينة لحركة ألفية ودون أهمية حقيقية للحركة الوطنية.

وكانت حركات فلاحية أخرى ألفية، وكانت تدعو المسلمين أحياناً لفكرة المهدي الذي سيأتي لتطهير الإسلام، أو على الأغلب اعتقاد جاوي قبل الإسلام عن مجيء أمير عادل يعمل على إقامة مملكة جديدة مع العدل والرخاء للجميع دون ضرائب أو اضطهاد. وكانت الصيغ السابقة لهذا المعتقد مرتبطة مع المحاكم الجاوية

الداخلية والنبلاء، لكنها امتدت مع الوقت إلى نظم المجتمع الأخرى، وفي القرن التاسع عشر برز رجل من أصول فلاحية من وقت إلى آخر لإعلان نفسه أو غيره أميراً عادلاً، وكانت هناك عدة حركات، أربعة أو خمسة أحياناً في أجزاء مختلفة من جاوا في سنة واحدة، ويمكن أن نأخذ النبوءة الألفية أحياناً ملامح مناهضة للأجنبي ومناهضة للهولندي. ولم تعط أي من هذه التحركات معارضة فاعلة للحكومة. لكنها تضمنت المعتقدات يمكن استخدامها لاحقاً لتعبئة طبقة الفلاحين لأهداف أخرى وأكثر تحدياً.

## صعود حركة الاستقلال:

كانت حركة الاستقلال في جزر الإنديز الهولندية والتي نهضت على هذه الخلفية مختلفة عن حركات مماثلة في غانا والهند البريطانية. وكان الهولنديون أكثر ذعراً من البريطانيين تجاه التحريضات الوطنية وكانوا أكثر شدة في قمعهم، وكان العنصر البارز في جزر الأنديز الهولندية الخليط الشفاف للحركات المتنوعة والتقاليد، ويستطيع موضوع الأمير العادل الألفي الانضمام إلى الوفاء الديني المسلم والقومية الحديثة والحركة الشيوعية العالمية لفترة الحرب الداخلية، وحملت النتيجة بعض التشابه مع الحركات الألفية في Melanensia، لكن كان أيضاً نمو مميز ووحيد للوضعية الثقافية والاجتماعية الجاوية.

بدأت الحركة الوطنية الأندونيسية بطريقة نموذجية في وقتها، انتشرت الجمعيات الثقافية في الحقل الأول من القرن العشرين غالباً بأسماء مثل جاوا الشابة أو Young Celebas مذكرة بالقومية الأوروبية للشباب الإيرلندي أو الشباب الترك، وفي المرحلة التالية عام ١٩١٢، أنشأ المثقفون ذات التعليم الغربي حزباً سياسياً على النمط الغربي، حزب الأنديز، ودعوا بشكل رئيس إلى الأقلية الأوروآسيوية وانتهى بسرعة بعد فترة قصيرة، لكنه كان أول تنظيم يحدد هويته بالجزر الهندية الهولندية كياناً سياسياً. وكان لمقياس الحركة الواسع الأول قاعدة

مختلفة، وبدأت Sanket Dagang Islam أو بجمعية التجارة الإسلامية لكن أصبحت لاحقاً ببساطة الجمعية الإسلامية. وكان العنوان معبراً، وكانت العضوية الأولى في أوساط التجار الجاويين الذين قاموا بتحرك مشترك ضد منافسيهم الصينيين. وكانت الإشارة إلى الإسلام بشكل رئيس لتحديد المصالح التجارية التي ليست صينية أو أوروبية.

وبدأت جمعية الإسلام بتنظيم مقاطعة التجار الصينيين، لكنها وسعت نشاطها وجذبت عضوية واسعة من الناس. ومنذ تأسيسها عام ١٩١٢، وصلت إلى ٤٠٠ ألف عضو خلال سنتين، وانخفض العدد قليلاً ثم عاد وارتفع إلى ٥٠٠ ألف عضو عام ١٩١٨ منهم ١٠ بالمئة من خارج جاوا. وكان زعيم مميز (عمر سيعد ثجو كرومنتو) Tjokioaminto فعالاً في تغيير التوجه، ملغياً عنصر مناهضة الصينيين وإدخال وعد بحياة أفضل من خلال الاستقلال السياسي. وجاءت شعبيته الواسعة في مجتمع لا زال نسبياً غير متعلم بشكل كبير لأنه بدا مستوفياً لنبوءات الأمير العادل.

بعد عام ١٩١٨، خسرت جمعية الإسلام المساندة جزئياً بسبب عدم تحقيق الإنجازات لكن أيضاً بسبب التيارات السياسية الجديدة في بداية العشرينيات التي اتسمت بالانتصارات الأولى للثورة الروسية، وقد انسلخ جزء من جمعية الإسلام عنها عام ١٩٢٠ ليؤسس الحزب الشيوعي الأنديزي وانضم إلى الأمة السوفياتية. وتحولت الأغلبية نحو اشتراكية أكثر اعتدالاً محافظة على هويتها الإسلامية؛ وتكيف Tjokroaminoto مع هذه التيارات السياسية الجديدة زاعماً أن الأمير العادل الحقيقي لن يأتي بشكل إنسان لكن بشكل الاشتراكية.

لكن Sanckat Islam بدأت بالتفكك، ومنذ عام ١٩١٩، بدأت الحكومة الهولندية الاستعمارية اضطهاداً علنياً واعتقال بعض الزعماء الأكثر راديكالية، لكن هذا العمل كان ضرورياً جداً، وقد اندلعت الصراعات في الفروع الخاصة بشكل رئيس بين الزعامة الأكثر تديناً وتلك التي مالت نحو الحزب الشيوعي الأنديزي وعندما ربح الحزب الشيوعي كما فعل دائماً، رحلت الطبقة الفلاحية وتوزعت

القيادة الدينية على تنظيمات مثل المحمدية، ولفترة اعتبر الحزب الشيوعي الأنديزي المتحور الرئيس من حركة الشعب لكنه انقسم أيضاً. وفي عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧، عندما حاول قطاع منه القيام بثورة مسلحة في جاوا الغربية وأجزاء من سومطرة، استخدمت الحكومة بسرعة الثورة كذريعة الاعتقال قادة الحزب وسحقه نهائياً.

وفي عام ١٩٢٧ أيضاً، ظهر سوكارنو على الساحة كزعيم وطني بارز، وكان تابعاً Tjokroaminoto وكان متزوجاً لفترة من ابنته. وقد أسس الآن حزب الإنديز الوطني مستعيداً بعض جاذبية Sarekat Islam السابقة. وكان سوكارنو خطيباً جيداً يستطيع الوصول إلى طبقة الفلاحين، وكان معروفاً بما سُمّي التوجه الخاص أو تشويش التفكير وأعجب بالتقليد الجاوي الذي جعل من الممكن جذب الناس من مختلف الآراء ،وكان أيضاً بارعاً في استخدام رموز «الأمير العادل». وقد تطور تفكيره خلال الثلاثينيات بهدف إقامة تركيبة من القومية والماركسية والإسلام وأمضى -مثّل الزعماء الوطنين الآخرين في ذلك الوقت- معظم فترة ما قبل الحرب في السجن أو المنفى.

وقبل الحرب العالمية الثانية، ظهرت عدة تيارات متنوعة معارضة للحكم الهولندي إلى الوجود، وكانت مفككة بحيث لا يمكن وصفها حاملة للشعور الوطني الأنديزي وهناك دليل صغير بأن الناس اعتقدوا عموماً بأمة أندونيسية، وقام الغزو الياباني بتغير الوضع بشكل مأساوي.

## الاحتلال الياباني

بدأ الاحتلال الياباني في آذار ١٩٤٢ كجزء من الغزو الواسع لجنوب شرق آسيا. وقد انتهى فجأة بعد الاستسلام الياباني في آب ١٩٤٥. وخلال سنوات الاحتلال، مهّد اليابانيون عن غير قصد الساحة للثورة الأندنيسية ١٩٤٥ - ١٩٥٠ وكان بعد ذلك ظهور أمة أندونيسية فعلية إلى الوجود. ويمكن تأريخ الاستقلال الرسمي بعد توحيد المناطق الهولندية عام ١٩٤٩.

وكانت حملة اليابانيين خلال الحرب مهمة مناهضة الإمبريالية، لكن احتلالهم أثبت أنه انتقال من سيطرة صناعية إلى سيطرة سلطة أخرى، وكانت تطلعات اليابانيين البعيدة لمدة مراوغة ومتقلبة، لكن كان هدفهم القصير الأمد استخدام الجزر ومواردها كحجر انطلاق نحو النصر في الحرب ضد الحلفاء الغربيين. وبالفعل كان النظام الياباني أكثر اضطهاداً من الهولنديين، فقد أرسلوا أكثر من ٣٠٠ ألف فلاح للعمل عمّالاً بالإكراه قرب جبهات القتال في غينيا الجديدة والبر الرئيسي الجنوب شرق أسيوي حيث لم يرجع سوى القليل منهم. وقاموا باعتقال الهولنديين وأقصوا الأوروآسيويين عن المراكز الحكومية ووضعوا يابانيين في المراكز العليا. وبما أنهم لا يستطيعون تأمين قوة متخصصة كافية للإشراف على إدارة جديدة كاملة، قاموا بإعطاء المراكز الثانوية للأندونيسيين الذين لديهم بعض الثقافة الغربية. وكان هؤلاء من نفس المجموعات المدنية التي تورطت في التحركات الوطنية وكانوا قد أخذوا سابقاً من جموع الناس. وكان سوكارنو ومحمد حتثا أبرزهم الذين كانوا من الوطنيين الناشطين في فترة ما قبل الحرب والذين خرجوا علناً إلى اليابانيين لرفع وتيرة القضية الوطنية.

وانطلق اليابانيون أيضاً من السياسة العسكرية لجزر الإنديز الهولندية والقوى الاستعمارية الأخرى. وقاموا بتجنيد قوة عسكرية مدربة ومسلحة جيداً مؤلفة من ٦٥ ألف رجل يخدمون تحت إمرة ضباط أندونيسيين ما عدا الرتب العليا. وكان طاقم الضباط منبثقاً من طبقة المدنيين والمثقفين نفسها الذين شكلوا البيروقراطية المدنية. وقام هؤلاء القادة المدنيون والعسكريون الذين برزوا خلال الاحتلال بالمضي قدماً حتى الاستسلام الياباني ليصبحوا نواة أي حكومة تتشكل خلافاً لذلك، فقد كان للنظام الياباني تأثير على مختلف المجموعات الاجتماعية بطرق شتى. وبشكل عام خرجت النخب القديمة من السلطة والجاه وحلت محلها النخب المتغربة وخرجت النخب الأوروآسيوية وخرج الهولنديون من السلطة ومن البلاد واتجه الفلاحون نحو الضعف الاقتصادي وليس خلاف ذلك.

وعندما انهار النظام الياباني، كان لهذه التغييرات نتائج مهمة. وأراد الذين أبعدهم اليابانيون العودة إلى مراكزهم وأراد الذين وضعهم اليابانيون الحفاظ على مكاسبهم وعرفوا أنهم سيخسرون إذا عاد الهولنديون.

في ظل هذا الوضع، فإن العودة إلى وضع Statusque كانت مستحيلة عملياً. كان ذلك واقعاً لو كان أو لم يكن هناك حركة استقلالية قبل الحرب.

## نهاية الحركة وحركة PEMUDA الشباب:

عندما استسلمت الإمبراطورية اليابانية، بدأ الحلفاء باحتلال جنوب شرق آسيا بشكل هزيل. وكان جيش الاحتلال الياباني لا يزال موجوداً لكن لم يكن اليابانيون متحمسين للقتال في معركة لا تخصهم. أعلن سوكارنو و Hatta، استقلال جمهورية أندونيسيا بدستور مكتوب وقاموا بتشكيل حكومة أندونيسية قبل عودة الهولنديين بقوة. وفي المراحل الأولى القصيرة، قامت الحكومة الجديدة بعملية اكتساح وأخذ سوكارنو بعض الوحدات من الجيش الذي نظمه اليابانيون لتشكيل قوة عسكرية أندونيسية وبدأ بقبول استسلام اليابانيين واستولى على أسلحتهم.

وفي أيلول ١٩٤٥، نزل البريطانيون الذين يشكلون القوة الحليفة الوحيدة القريبة في أندونيسيا لقبول استسلام الحامية اليابانية، عاملين نظرياً لصالح هولندا، وكانت حكومة هولندا قد أمضت الحرب في المنفى في بريطانيا، وكانت في سياق استعادة السيطرة على هولندا ومما يدعو للسخرية ضمت قوات الحلفاء الهنود الذين وجدوا أنفسهم يقاتلون الجمهورية الأندونيسية في الوقت الذي كانت بريطانيا تنظم انتقال السلطة في الهند.

لم تكن جمهورية أندونيسيا الواقعة تحت سيطرة الجيل القديم من الوطنيين المدنيين الذين يتفوق عليهم الحلفاء وكذلك الحركات الثورية الأندونيسية، وفي فترة ما بين أيلول ١٩٤٥ وصيف ١٩٤٦، وقعت جاوا وسومطرة في قتال متشابك بين مختلف الأطراف المتصارعة المنضوية معاً في حركة PEMUDA، وتعني PEMUDA

الشباب لكن لم تكن حركة شباب بالمعنى الغربي العادي، وتعتبر PEMUDA مرحلة في نمط حياة الشباب الجاوي تشتمل عل التثقيف والتطهر استعداداً لمرحلة النضوج. وفي هذا الوقت من الأزمة، انطلق النشطاء الشباب في اتجاهات متنوعة عوضاً عن الانسحاب وقاتلوا غالباً ضد الحلفاء الغزاة مع القوى التي تجمعها الجمهورية أو مرحلياً ضد اليابانيين الذين كانوا في حالة دفاع عن النفس.

كان مركز نشاط (PEMUDA) الشباب في جاوا وسومطرة. واندلعت أحياناً حرب أهلية بين قوات PEMUDA المتصارعة والتي كان منها المئات في أندونيسيا في حينه. ومن أشتيه شمال سومطرة، تحولت الحرب إلى هجوم قادة زعماء المتدينين المسلمين ضد العائلات الارستقراطية التافهة التي سيطرت رسمياً على المنطقة. وفي منطقة شرق سومطرة السكنية سميت الحركة ثورة اجتماعية وحالياً نوع من ثورة الفلاحين حيث هاجمت عصابات الرعاع تحت القيادة الشيوعية المحلية الأغنياء أو أياً كان يعيش على النمط الغربي. وفي أماكن أخرى، حاول الاوروآسيويون الوقوف إلى جانب الهولنديين في محاولة لاستعادة امتيازاتهم السابقة.

وفي منتصف ١٩٤٦، أُنشئ شكل حكومة في معظم المناطق وبدت الجمهورية مسيطرة. واستلم الهولنديون مكان حلفائهم الإنكليز محاولين إعادة بناء الوضع الاستعماري، أولاً عبر الدبلوماسية من خلال إثارة الجزر المحيطة ضد جاوا. وفي عام ١٩٤٧ عندما فشل هذا الجهد الدبلوماسي. اتجهوا نحو الهجوم العسكري الشامل على جاوا وانتصروا، وقاموا بأسر سوكارنو وحتتا ومعظم الجزيرة لكن الانتصار العسكري لم يكن كافياً. وفي النهاية، هزم الاستياء الشعبي في الحرب في هولندا، إضافة إلى الضغط الدولي للقوى العظمى البارزة، جهدهم في السيطرة بالرغم من الانتصار في المعركة. واعترفت هولندا باستقلال أندونيسيا في كانون الأول ١٩٤٤، وانهارت حكومات الدُّمى التي أنشؤوها في جنوب سولاويسني Sulawesi وأجزاء من سومطرة سريعاً أمام الهجوم العسكري للجمهورية الأندونيسية.

وكانت النتيجة السياسية انتصاراً للقادة المدنيين العلمانيين الذين وجهوا الحركة القومية منذ عام ١٩٢٠، وأدى التغير المهم خلال ثماني سنوات إلى تصفية السياسات الوطنية والدينية ضمن جموع السكان الذين لم تمسهم سابقاً الحلول السياسية الكبرى. واعترف معظم الناس الآن أنهم أندونيسيون بالرغم من أن التغيير الحاصل رئيس في النظرة دون تبدل الفارق السياسي والاجتماعي الذي وجد طيلة الوقت. واستمر الصراع بين جاوا والجزر المحيطة وكذلك الصراعات العرقية. وأدى القتال في السنوات الثورية أحياناً من حدة الخلاف السياسي بين SANTRI وabangan في القرى الجاوية، وحصلت خلافات حادة حول مستقبل الدولة ظلت قائمة حتى عندما كانت الحرب ضد الهولنديين تتطور. وفي عام ١٩٤٨، قامت عناصر في حزب الأنديز وآخرون من الجناح اليساري للحركة الوطنية بالثورة ضد الجمهورية في Madium إلى الشرق من جاوا وعمدت الجمهورية إلى قمع الثورة بقوة السلاح.

## السياسات الأندونيسية بعد الاستقلال:

بدأت أندونيسيا الحياة السياسية تحت حكم النخبة التي احترمت رغم ذلك الأشكال الديمقراطية. ولم تكن هناك انتخابات في البداية لكن قام القادة الجمهوريون عام ١٩٤٥ بتنظيم اللجنة الوطنية المركزية المبتدئة بشكل من المشاركة السياسية من ممثلي الزعماء. وكان الزعماء الرئيسون رباعياً مؤلفاً من سوكارنو وسلطان Sjharir ومحمد حتتا وأمير Sjarifuddin. وضمن هذا البرنامج، برزت وسقطت حكومات وحصلت تحالفات وألغيت لكن استمر شكل من الحياة السياسية البرلمانية.

في عام ١٩٥٥، كانت الانتخابات الأولى منافسة بين الأحزاب السياسية النشطة. وكانت هذه الأحزاب مختلفة عن النموذج الاعتيادي لمجال سياسي يتراوح بين الراديكالي والمحافظة أو من اليسار إلى اليمين، وكان هناك نوعان مختلفان من الأحزاب، الذين يهتمون بشكل رئيس بالقضايا الدينية والذين يهتمون أساساً

بالقضايا الاجتماعية والسياسية. وكان ممثلو الرأي العام الإسلامي مثل الذين انضموا إلى SAREKAT ISLAM منقسمين بين حزبين، وجاء أحدهم Majiumi ليمثل الأوساط الإسلامية المحافظة المجددة التي تنتمي إلى المحمدية. وكان الحزب الإسلامي الثاني والأكبر المعروف باسم نهضة الأمة التي ترجم حزب الأساتذة المسلمين. ووقف إلى جانب الأصولية الإسلامية بهدف تحويل أندونيسيا إلى دولة مسلمة، وكما يقترح الاسم كانت نواة الحركة طبقة العلماء ومثقفي القرى. وحصل الحزبان المسلمان الرئيسان على ٤٣ بالمئة من انتخابات ١٩٥٥، معطيان دليلاً كبيراً على أن الإسلام لا زال قوة سياسية مهمة.

في تلك الأثناء، انجذبت العقول الأكثر علمانية إلى أحزاب تمثل الحلول العلمانية لمشكلات أندونيسيا، الشيوعيون، الاشتراكيون ووطنيو سوكارنو، وحصلت الأحزاب العلمانية على أغلبية ضئيلة في انتخابات ١٩٥٥ مع التصويت الكبير للحزب الوطني الأنديزي وسوكارنو بالرغم من حصوله فقط على أقلية، وكان الدعم الرئيس لسوكارنو في جاوا مركز السلطة الهولندية ومركز الثورة.

وكان ظهور الحزب الشيوعي مفاجئاً وقد تمرد ضد الجمهورية عام ١٩٤٨ بعدها فقد الحزب الاحترام وأُعدم بعض قادته القدماء لكنه لم يقمع. وظل في البرلمان وحصل على ربع المقاعد في انتخابات عام ١٩٥٥.

## السياسة والجيش:

وكان العسكر عاملاً سياسياً مهماً آخر في أندونيسيا كما في معظم الدول ما بعد الاستعمار، وبدأت معظم الأنظمة المستقلة بأي قوة دفاع أنشأتها السلطة المستعمرة، وللحفاظ على الأمن، جندت القوى الاستعمارية في قواتها أشخاصاً من الحاشية، وقد جند الهولنديون أشخاصاً AMBONESE ومن سكان الجزر الأخرى بدل الجاويين، غير أنه خلال الاحتلال الياباني فقد تجاهل الاحتلال هذه القوى وجندوا القوة العسكرية الجديدة من جاوا. وشكلت هذه القوة العصب الأساسي

للجيش الأندونيسي الجديد، لكن كان معظم الجيش الذي تشكل في أوائل الخمسينيات منظماً من شباب مرتبطين بحركة الشباب PEMUDA. وكانت النتيجة تبدو معاكسة للوضع المألوف للعسكريين المتخصصين الذين يدخلون السياسة، وكان العسكر الأندونيسيون مسيساً منذ البداية وكانت مصالحهم السياسية التي أوصلتهم إلى الجيش.

ونتيجة لذلك، كان الجيش قوة سياسية بطريقة خاصة. ففي منتصف الأربعينيات، كان في البداية حركة شباب يقودها رجال معظمهم تحت سنّ الثلاثين. وكانت القيادة الجمهورية بمجملها ومن ضمنها سوكارنو قادة الحزب الشيوعي ينتمون إلى جيل آخر كان بعضهم في الحياة السياسية منذ حركة Saukat Islam وخرج بعضهم من أوساط الطبقة المثقفة هولندياً وذات أصول مدنية، وعلى العكس، جاء العسكر بشكل رئيس من المدن الجاوية الصغيرة ولم يتعدَ معظمهم التعليم الثانوي ويعرفون قليلاً اللغة الهولندية. وعلى الصعيد الديني كان معظمهم مسلمين من جماعة Abangan وليس Santi.

وبينما كان معظم القتال في جاوا، كانوا جاويين وليس من الجزر المحيطة.

## ديمقراطية موجهة

بدا التحرك نحو الديمقراطية وانتهى مع انتخابات ١٩٥٥، غير أن الصراعات البرلمانية استمرت لبضعة سنوات بموازاة نزاعات أخرى داخل الجيش المسيس. ولم تسيطر أي فئة على المجلس وكانت السيطرة المدنية عل الجيش الضعيف وكان لدى القائد الأعلى سيطرة ضعيفة على قادة المناطق.

وفي أواخر ١٩٥٦، استولى عدد من القادة المحليين في سومطرة وفي جنوب سولاويسي Sulawesi على الحكومة المحلية احتجاجاً على الهيمنة الجاوية، وقد تعمقت الأزمة عام ١٩٥٨ عندما اجتمع سومطرة الغربية، وتبع ذلك حرب أهلية

قصيرة وانتصرت الحكومة المركزية مع استمرار بعض نشاط حرب العصابات حتى أواخر ١٩٦١، وقادت هذه الأحداث إلى اضطهاد Majumi والاشتراكيين معاً.

وفي عام ١٩٥٩ ألغى سوكارنو الدستور وأنشأ نظاماً سمي، الديمقراطية الموجهة وحاول توحيد البلاد من خلال عقيدة جديدة سماها Masakom الوطنية المترابطة، الإسلام والشيوعية، وأصبحت السلطة السياسية الآن بيد حزب سوكارنو الوطني مع النفوذ الكبير للحزب الشيوعي. في الواقع كان تحالف حزبي ثلاثي من شركاء الفراش موحداً الحزبين الرئيسين السياسيين الاقتصادية بدعم من الجيش.

حاول سوكارنو تأسيس دعم لحكمة من خلال سياسة خارجية عدائية تشمل على تأميم كل الأملاك الهولندية وضم IRIAN الغربية (التي كانت تحت سيطرة الهولنديين) وقام بهجوم غير ناجح على الأراضي الماليزية في بورنامي ووقع تفاهماً مع جمهورية الصين الشعبية وانسحب من الأمم المتحدة. وقد شجع تحوُّله نحو اليسار إلى تنامي الحزب الشيوعي بقيادة AIDIT.M.D لكن ذلك لم يوحد البلاد، وعمل على التحالف مع مجموعات أرستقراطية في الجزر المحيطة والجيش والعديد من أعضاء الخط القديم في الحزب الوطني الذين ظلوا يعتبرون الحزب الشيوعي متمردين رئيسين يمكن أن يستخدموا القوة للسيطرة كلياً على الحكم. إضافة إلى ذلك، كان سوكارنو قد بلغ سن الستين مما شكل أرضية للصراعات على السلطة في حال وفاته.

## الانقلاب والانقلاب المضاد عام ١٩٦٥:

في نهاية عام ١٩٦٥، كانت مجموعتان متنافستان تستعد لصراع مسلح. وكانت مجموعة مناهضة للشيوعية بقيادة الجنرال ناسيوسيون وزير الحرب. وكان الحزب الشيوعي بقيادة AIDIT يستعد أيضاً لانقلاب مضاد معتمداً على الظروف. وقد ضرب الحزب الشيوعي أولاً وقتل ستة جنرالات معارضين وسيطر على جاكرتا ويوغيرتا لفترة قصيرة. بعدها رد الجيش الذي لم ينو حصول إبادة لكن حصل ذلك،

وبدأت المجزرة بهجوم مضاد للجيش على الحزب الشيوعي وأتباعه ثم انضم آخرون. وخلال حصول المجزرة التالية، انقلب غضب الناس ضد أي أعداء قدماء جاؤوا للمساعدة.

وكان السبب الرئيس لظهور العنف القناعة المتنامية في أوساط طبقة الضباط أنها تواجه خطر الموت إذا استولى الحزب الشيوعي على السلطة. وكانوا بالتأكيد يخافون على وظائفهم. وكانت التوترات الاجتماعية القديمة والشخصية والتي واكبت حركة الاستقلال واضحة في حرب العصابات التي توسعت، كان الجيش المحرك الرئيس، لكن كان لحزب نهضة الأمة الميليشيا التابعة له في جاوا وكان مسؤولاً عن العديد من عمليات القتل. وانضمت المحمدية من خلال فتوى تعد القضاء على الحزب الشيوعي واجباً دينياً؛ لذا كان من الصعب عزل العنصر الديني عن الأسباب الأخرى الممكنة.

أن تكون سانثري Santri على سبيل المثال، كان يعني دور الزعامات القروية وأن تكون Abangan لا يعد أنك ملحد فقط بل شيوعي.

وحصل الانقلاب الرئيس في ٣٠ أيلول عام ١٩٦٥، وبعد شهرين توفي عيديت وانتهت الثورة، لكن عمليات القتل الواسعة استمرت حتى كانون الثاني ١٩٦٦.

لكن تفاوت عدد القتلى بلغ مجموعه حوالي ٨٠٠ ألف في وسط وشرق جاوا وحوالي مئة ألف في بالي وسومطرة أو ما مجموعة مليون نسمة. وقد نتج عن الحملة العسكرية الناتجة اعتقال أكثر من مليون شخص في معسكرات اعتقال في الجزر المنتفضة. وكان حوالي المئة شخص لا يزالون في السجن حتى أواخر ١٩٩٥ بينما تم الإعلان رسمياً عن إطلاق سراح مليون ٣٥٣ ألف شخص عام ١٩٩٢، ولا زالت هناك أسئلة دون أجوبة حول دور الحكومة الأميرلية مع أنه كان واضحاً أن الدبلوماسيين الأميركيين في جاكرتا كانوا على اتصال مباشر مع قيادة الجيش الجديدة للجنرال وسوهارتو. وقالت بعض التقارير: إن لائحة بالأشخاص المطلوب قتلهم وضعت من قبل السفارة الأمريكية. وبالتأكيد، كانت الحكومة والصحافة



obeikandl.com

الأمريكية إلى جانب الانقلاب ولم تقدم الحكومة الأمريكية أيَّ احتجاج على عمليات القتل، في تلك الفترة، كانت أمريكا تحضر للتدخل العسكري في فيتنام.

كانت الحكومة الجديدة برئاسة سوهارتو ممثلاً للجيش خاصة الجيل الذي قاد حركة PEMUDA. وسمح سوهارتو لسوكارنو الاستمرار كرئيس شكلي مع الإقامة الجبرية. وفي ١٢ آذار ١٩٦٧، شعر الجيش القدرة على إقصائه كرئيس.

كان عمر سوهارتو ٤٨ سنة عند تسلمه السلطة، وكان في سن العشرين عند بداية الثورة، وحافظ على السلطة كقائد لطبقة عسكرية حتى ١٩٩٨ عندما أجبرته انتفاضة شعبية للاستقالة وخلال هذه العقود أدخل الجيش أسلوبه في الديمقراطية الموجهة التي سميت بالنظام الجديد، وقام الجيش بقمع الحزب الشيوعي وحركات سياسية أخرى لكن الحزب الوطني استمر بالعمل. وقد سمحت الحكومة الجديدة بانتخاب نواب بسلطات محددة. ومع أن الانتخابات كانت مسيطراً عليها كأسلوب مفيد لإبقاء الحكومة مطلعة ومعطية للشعب شعوراً بأن وجهات نظره مسموعة. وبالفعل شكل الجيش حزبه اللجنة المركزية للقوى العاملة المسمى Oolkar وقد أدت الإحباطات العديدة والضغوط إلى زعزعة استقرار أندونيسيا خلال القرن ولا زالت موجودة، لكن لثلاثة عقود أنتجت الطبقة الحاكمة الإصلاحية من الثوريين نظاماً ثابتاً نسبياً وفترة من النمو الاقتصادي الناجح.

وقد فشلت أندونيسيا في نواحي عديدة أخرى في تحقيق الآمال التي كانت تطمح إليها خلال عقود الاستقلال الأولى. وقد حققت نمواً اقتصادياً نسبياً، لكن المكاسب كانت مضطربة بشكل غير متكافئ، وقد كان سجلها حول حقوق الإنسان ملطخاً بالإبادة السياسية عام ١٩٦٠ وكان وعد الحكومة بتحقيق الديمقراطية ضمن برنامجها ولم يكن ذلك صحيحاً. وبسبب كل السجل الملطخ، أصبحت الأراضي التي جمعها الهولنديون تحت اسم الإنديز الهولندية، أندونيسيا وهي دولة قابلة للبقاء أكثر مما كان يتوقع العديد عام ١٩٤٥.



obeikandi.com

## ردود الفعل العثمانية على الغرْب

واجهت الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية اليابانية التهديد الغربي في ظروف مختلفة كليا. وشكلت الإمبراطورية العثمانية أحد ثلاثة مراكز إسلامية جديدة في عصر الامبراطوريات. في العالم الإسلامي: امبراطورية المغول في الهند والصفوية في بلاد فارس. ومنذ القرن الرابع عشر، كانت الأقاليم العثمانية متاخمة لحدود أوروبا المسيحية، وواجه جنوب شرق أوروبا الخطر العثماني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ففي عام ١٤٥٣ قضى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية على ما تبقى من الإمبراطورية البيزنطية، وأقام مكانها إمبراطورية إسلامية. وخلال القرن السادس عشر، أصبح الأتراك متساوين عسكرياً مع أي قوة غربية متفوقة. وعلى الساحة العالمية، شكلت الإمبراطورية العثمانية إحدى أبرز الامبراطوريات في صناعة المدافع.

وفي القرن السابع عشر وبعده، تحول ميزان القوى العسكري لصالح الغرب، ولم يدرك العثمانيون، وكذلك اليابانيون حجم القوة المتنامية في أوروبا مع أن علاماتها كانت أوضح مما كانت عليه قبل الثورة الصناعية الكاملة في القرن التاسع عشر. وبالرغم من أن القيادة العثمانية كانت مطلعة بشكل جيد على الوضع الأوروبي، فقد قادتها الشوفونية الثقافية المشتركة السائدة في العالم الإسلامي آنذاك إلى التغاضي عن التهديد الأوروبي. لكنّ أقلية مميزة أدركت هذا الخطر عام ١٧٩٠ وسبقت اليابانيين بنصف قرن حيث لم يدركه هؤلاء حتى عام ١٨٤٠.

### المجتمع العثماني والثقافة:

كانت الإمبراطوريتان العثمانية واليابانية متشابهتين في تجنبهما للغزو الأوروبي، لكن أساليب الرد اختلفت. وكان الرد الفعال يتطلب أكثر من أسلحة متطورة في كلتا الحالتين، بل يحتاج إلى إعادة بناء نظام اجتماعي وسياسي قادر على تنظيم وتجهيز قوة عسكرية تستطيع استخدام أسلحة متطورة بفعالية. وقد فشلت معظم

المجتمعات غير الغربية الأخرى في إجراء هذا التعديل وخضعت بالتالي للحكم الأوروبي لفترة.

وكانت المؤسسات التي نظمت وحمت أساليب الحياة اليابانية، والعثمانية مختلفة تماماً. وكان للدين أهمية أكبر لدى العثمانيين منه لدى اليابانيين أو أوروبا الغربية. ففي أوروبا كان هناك خلاف بين الإمبراطورية الرومانية، والباباوية طيلة القرون الوسطى وكان هذا الصراع قائماً في أماكن أخرى.

وقد فرض المبدأ المسيحي «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، قيام الدولة والكنيسة بوظائف متنوعة. أما بالنسبة للمجتمعات الإسلامية، فقد كان للشريعة عموماً أساس ديني وليس علمانياً ولم تفرق بين الكنيسة والدولة. واعتبر السلطان الحاكم الشرعي كونه يحمي العقيدة الصحيحة وقوانينها. وقد تشاجرت السلطات العلمانية والدينية كما حصل في المجتمعات الأخرى لكن لم يحصل تمييز نظري بين ماهو للسلطان وما هو لله.

أضف إلى ذلك، أنه لم يكن لدى المجتمع العثماني موقف منظم، مساوٍ للكنيسة الأوروبية التي تستطيع التحدث عن المصالح الدينية. كان لديه عوضاً عن ذلك، طبقة من المفكرين الإسلاميين والعلماء الذين ترتكز سلطتهم على التعليم وليس العمل ضمن النظام الوظيفي أو المعين من قبل السلطة الدينية العليا. وقد تنوع وضع العلماء في العالم الإسلامي، فكان أضعف من الكنيسة في بعض الدول وأقوى منها في بعضها الآخر.

وقد أعطت الدولة العثمانية دوراً مؤسساتياً للدين أكثر مما هو عليه في دول إسلامية أخرى. وتربع السلطان على رأس سلطتين إداريتين، واحدة علمانية وأخرى دينية، لكل منهما طاقم منفصل من الموظفين. وفي المراحل الأولى للإمبراطورية تسلمت طبقة من الموظفين التابعين عمل الحكومة العلمانية، وكانت تأتمر بأمر السلطان متحررة من الروابط العائلية وروابط المجتمع الذي تسيطر عليه.

وبالرغم من ذلك كانت السلطة القضائية بيد القضاة الذين درسوا وفق الشريعة الإسلامية وكانوا من طبقة العلماء. وكان لهذه السلطة القضائية المستقلة- الموظفون الدينيون- قيادتها الممثلة بالمفتي أو شيخ الإسلام الذي يُعد السلطة الدينية العليا التي تعطي الإذن بعزل السلطان مرة تلو الأخرى وفق الشريعة.

بهذا المعنى، كان لدى العثمانيين موظفون من رجال الدين، لا أكليروس بالمعنى المسيحي. وبالرغم من ذلك، كانت هناك مجموعة من الرجال تتمتع بسلطة دينية، وقانونية منبثقة عن دور السلطان الثنائي كحاكم وخليفة للمسلمين بعد محمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا كانت للعلماء العثمانيين سلطة رسمية وشرعية أكثر مما لنظرائهم في ممالك إسلامية أخرى.

وكأي نظام سياسي، ابتعد العثمانيون مع الوقت عن البساطة السائدة سابقاً. ومع اتساع المناطق التي يسيطرون عليها، ضعفت الروابط مع المقاطعات البعيدة التي اتجهت نحو الحكم الذاتي. ولم تكن منطقة الجزائر خاضعة عن قرب لسلطة الدولة العثمانية في اسطنبول، ولم يكن لدى الداي سوى سلطة متقلبة وغير ثابتة على بلاده.

وقد خضع الحكام الأقرب للدولة الأم لمراقبة أكبر، لكن سلطة السلطان الفعلية أو البيروقراطية المركزية المخولة إصدار الأوامر، وفرضها كانت محدودة كما يحصل في معظم الدول النامية.

لعب العسكر دوراً مميزاً كما في أي مكان آخر لأنه كان مستقلاً. وشكلت الانكشارية الوحدات الأكثر أهمية، للجنود العبيد الذين كانوا عصب الجيش. وكان يجري تجميع هؤلاء الأطفال من خلال شرائهم أو من الفرنجة التابعين للإمبراطورية أو خارجها ويتم ضمُّهم إلى قوى النخبة العسكرية. وكغيرها من القوى العسكرية الأخرى، فإنها كانت قادرة على التأثير في مسار سياسة الدولة وفي بعض الأحيان إصدار الأحكام وإلغاؤها.

وكان هناك مركز مهم للسلطة يتخطى سيطرة السلطان يسمى الأعيان وهو مجموعة تضم زعماء المحافظات وكبار الأعيان وأصحاب الإقطاعيات وجباة الضرائب الذين لديهم قوة كافية لإنشاء إقطاعيات محلية. وكان لدى العلماء والعسكريين سلطات من مصادر مستقلة عن السلطان.

ولا يطيع هؤلاء الأوامر دائماً ومن الصعب إقصاؤهم عن مراكزهم. وحتى البيروقراطية المركزية من الإداريين المملوكين من السلطان والذي يمكنه تعيينهم أو عزلهم حسب رغبته لديهم بيروقراطية غير فاعلة.

وشكلت مشكلة القوميات المصدر الآخر لضعف الدولة وأصبحت شديدة الأهمية مع مرور الزمن. وتعد كل الدول الكبرى متعددة القوميات إلى حد ما، لكن الإمبراطورية العثمانية كانت أكثر تنوعاً من معظمها. ففي القرنين السابع والثامن عشر كانت الدولة العثمانية وطنية أكثر منها متعددة القوميات. وبالطبع، فقد كانت تركيا، بمعنى أن المسلمين الأتراك يسيطرون على السلطة السياسية، واللغة التركية هي لغة التعليم والإدارة لكن معظم أتباع العثمانيين لا يجيدون التركية كإجادتهم للغاتهم. ولم يعتبر الذين لا يجيدون اللغة التركية أنفسهم أتراكاً، وكانت ميزتهم الرئيسة في تحديد هويتهم جماعتهم المحلية من مزارعين وبدو وسكان مدن أو الإسلام كرابطة أخوية كبرى من المؤمنين.

وفي القرن الثامن عشر، كانت نظرة العالم للطبقات العثمانية الحاكمة سلطةً ينظر إليها من المنطقة المحيطة باسطنبول، وشكلت استنبول، وما حولها قلب الإمبراطورية على الجهة الغربية من المضائق وليس الأناضول إلى الشرق.

وبنظرهم كان العثمانيون المسلمون يهتمون بالشؤون الدولية وهم من أتباع السلطان بينما ظل المسلمون السُّنة من غير الأتباع معتبرين جزءاً من المجموعة إخوةً في الدين وحتى موالين.

ويأتي في أسفل السلم الأتباع غير المؤمنين وهم يشكلون جزءاً كبيراً من سكان الإمبراطورية وتتضمن هذه المجموعة المسيحيين الأرض المتمركزين في شرق

obeikandi.com

الأناضول، والمسيحيين اليونان في البلقان، وبعض المسيحيين الكاثوليك، وجماعة اليهود الموزعة في أنحاء الإمبراطورية. وكانت كل هذه الأقليات الدينية عبارة عن ملل معترف بها من الدولة، ومُصرَّح لها بممارسة ديانتها مقابل ضريبة أعلى وإجراءات أخرى لا يخضع لها المسلمون. وكان أسقف القسطنطينية رأس الكنيسة اليونانية الأروثوذكسية، وظل المركز الإداري للمسيحية الأرثوذكسية في اسطنبول حتى يومنا هذا.

وفي أسفل السلم، كان أولئك الذين هم خارج الإمبراطورية وخارج المألوف الديني. وتتضمن هذه المجموعة جيراناً كالمسيحيين الأورثوذكس إلى الشمال والمسيحيين إلى الغرب، لكن كان هناك أيضاً المسلمون الآخرون إلى الغرب، كان هناك أيضاً المسلمون الشيعة في بلاد فارس وهم أعلى درجة قليلاً.

## التهديد الغربي:

منذ القرن الخامس عشر وبعده، واجه العثمانيون مسيحيي شبه جزيرة البلقان عبر حدود عسكرية متنازع عليها بشكل دائم، وشكلت منطقة المتوسط نقطة النزاع الأخرى بالنسبة للسيطرة البحرية. وكان القرن السادس عشر عصر التفوق العثماني بينما شكل القرن السابع عشر فترة هدوء على جبهة البلقان مع بعض التراجع أمام القوى المسيحية هناك وفي المتوسط. وقد تراجع العثمانيون أكثر في القرن الثامن عشر، لكن لم تتعرض سيادة الإمبراطورية العثمانية للتهديد بشكل رئيس حتى نهاية القرن.

وباستثناء بعض المعارك المتفرقة خلال هذه الفترة، فإن التبادل الثقافي بين العثمانيين، والغرب تراوح بين التسامح الحذر والاحتقار.

وكانت عند المسيحيين حالة طويلة من الكراهية للوباء الإسلامي تعود بدايتها إلى فجر الإسلام واشتدت مع الصليبيين. لقد كان العثمانيون أكثر تسامحاً فيما يتعلق

بالاختلاف الديني، لكن نظام الملة وامتزج بين التسامح ومحاولة وضع الأقليات المسيحية واليهودية في مجتمعات مغلقة.

وعلى الرغم من ذلك كانت الحدود المسيحية- العثمانية تشكل حدوداً عسكرية، حيث كان كلا الطرفين في حالة ترقب. انتظاراً لعدوّه. وقام كل طرف بنسخ ما هو ثمين عند الآخر؛ لكن الاقتباس كان محدوداً ومتصلاً بالتقنيات العسكرية وحسب. وقد أدى التشدد العثماني إلى بقاء العثمانيين متخلفين عن الغرب في مجالات أخرى. فعلى سبيل المثال، ظلت الطباعة محرمة على العثمانيين، (عرب وأتراك) حتى القرن الثامن عشر خوفاً من تدنيس الكتابات المقدسة مع أنه كان مصرحاً لغير المسلمين بالطباعة بالعبرية واليونانية أو اللغات الأوروبية الأخرى. وحتى بعد السماح بذلك، لم تكن الطباعة التركية منتشرة حتى القرن التاسع عشر. بدأت التكنولوجيا العثمانية تتراجع وتسقط خلف القدرة الاقتصادية الأوروبية ثم تحول نحو الثورة الصناعية، في منتصف القرن الثامن عشر، أصبحت هذه التحولات واضحةً في القوة العسكرية نسبياً خاصة على جبهة البلقان حيث قام النمساويون وغيرهم باستعادة بعض المناطق المسيحية المحتلة منذ قرن؛ لذا شعر العثمانيون بالخطر عندما بدؤوا يفقدون مناطق يقطنها المسلمون. ففي عام ١٧٦٠ تقدم الروس من الشمال نزولاً نحو البحر الأسود وضموا بلاد القرم حيث كان حكام التتار المسلمين نظرياً تحت سيادة اسطنبول. وفي عام ١٧٩٨، غزت الجيوش الفرنسية مصر ثم حاربت في العالم التالي الجيوش العثمانية في سورية، وقد أنقذ تدخل البحرية البريطانية العثمانيين من خسارة كبرى لبعض المقاطعات العربية.

في هذا الوقت، بدأ العثمانيون بالرد، وقد اعترف السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) بالرغم من كونه متشدداً بتنامي التفوق العسكري الأوروبي. ووجد مع مستشاريه، أن هناك حاجة لإصلاح عسكري راديكالي مدعوم بإصلاح اقتصادي ومالي. وفي عام ١٧٩٢-١٧٩٣ أصدر مجموعة من المراسيم سميت كلها بالنظام الجديد وركزت هذه المراسيم على أولوية التحقق من القوة العسكرية للغرب وليس كما فعل بطرس الأكبر في القرن السابق.

واشتمل البرنامج العسكري المركزي للنظام الجديد على إنشاء فرقة مشاة نظامية جديدة، مدربة وفق الأساليب الغربية ومنفصلة عن أسلوب الانكشارية القديم. وتضمن أيضاً كليات عسكرية وبحرية جديدة يشرف عليها مستشارون فرنسيون، وجرى إصلاح راديكالي للنظام الضريبي وعمل السلطان على تشكيل حكومة أكثر فاعلية قادرة على دفع تكاليف التحديث العسكري. وكانت لهذا الجهد نتيجتان مهمتان دفعتا إلى جهود غير غربية لاحقة لتموين القوة العسكرية. أولاً: أوصلت إلى السلطة آلياً مجموعة جديدة للاهتمام بالشؤون العثمانية. وكان هناك الضباط العسكريون الجدد، الذين (نتيجة لتدريباتهم المكتسبة وبعضها في الغرب)، قاموا باقتباس التقنيات العسكرية الغربية إضافة إلى تعلم العلوم الغربية والتكنولوجيا العسكرية. وقد أعجب هؤلاء بالأمور الأخرى التي شاهدوها في الغرب. وقد أصبح الجهاز العسكري الحديث عنصراً علمانياً ومتغرباً في المجتمع العثماني كما كان المجددون العسكريون في اليابان عصب حركة التحديث في المجتمع.

والنتيجة الثانية والمعاكسة: أنّ النظام الجديد اعتُبر تهديداً للنظام القديم. وكانت الحكومة تحتاج لزيادة الضرائب مستعدية القادرين على الدفع.

وقد شكلت الإصلاحات الضريبية أيضاً تهديداً للأعيان وجُباة الضرائب إضافةً إلى الضغط المتزايد للحكومة المركزية. والأكثر أهمية أيضاً، أن النظام الجديد شكل تهديداً للسيطرة العسكرية لضباط الانكشارية، واستعدى مجموعة أخرى مهمة. وأخيراً اعتبرت الإصلاحات العسكرية اقتباساً من البرابرة غير المؤمنين يمكن أن يهدد الإسلام نفسه، إلى درجة استعدائه عناصر مهمة في صفوف العلماء.

وقد أعادت الأزمة إنتاج عناصر من صراع بطرس الأكبر في تحديث الجيش الروسي أو جهود النخبة المسيحية لتحديث اليابان، لكن المجددين فشلوا هذه المرة.

ووحد المتشددون قواهم عام ١٨٠٧ وأسقطوا سليم الثالث، منهين بشكل مؤقت الإصلاح العسكري أو أي تجديد فاعل.

## مشكلة القوميات:

مع مرور الوقت؛ خاضت الملل (القوميات) تجربة الإحساس بالثورة من أجل الهوية الخاصة. بدءاً باليونانيين، بدأ أتباع الدولة العثمانية التفكير بأنفسهم ككيانات قومية، ويعود هذا التحول إلى ضعف الروابط والموقع والقرب من العالم الصناعي في القرن التاسع عشر. لكن فكرة الانتماء إلى أمة انتشرت أيضاً في الغرب، خاصة في فرنسا إبان الثورة الفرنسية، ومعها فكرة حق الشعوب بحكم ذاتي بسبب الانتماء القومي المشترك.

وسوف يعود التأثير القومي للظهور لاحقاً في هذه المقالات. لكن يجب الإشارة إلى اثنين من تشكيلاته المتعددة ضمن السياق العثماني. عموماً، وصلت الشعوب التي عاشت في ظل دولة واحدة لعدة قرون إلى تجربة مشتركة من الإحساس بالتضامن. وقد أعطيت تسمية الدولة –الأمة، أو القومية في بعض الأحيان، لأن الدولة جاءت أولاً ثم أنشئت الأمة بعد فترة من الزمن. وتعد بريطانيا وفرنسا مثالاً على ذلك. وقد خاضت الشعوب التي تتمتع بلغة وتاريخ مشترك تجربة الأمة في وقت لاحق في القرن التاسع عشر. وقد حول بعضهم هذه التجربة إلى حركة سياسية مطالبة بالاستقلال، وبحكومة ذات سيادة حسب هويتهم القومية. وفي هذا السياق جاء الحسّ القومي في الطليعة وتلته المطالبة بذاتية ينتج عنها نوع الدولة الأمة لكل قومية. وشكلت ألمانيا وإيطاليا الأمثلة الأولى في هذا المجال.

وقد ظهرت علاماتٌ قليلةٌ في الدولة العثمانية لتنمية عنصر الولاء للدولة– الأمة لدى أتباعها، لكنها فشلت كقوة محركة على المدى الطويل، وأصبحت فكرة القومية المجزأة التي سادت مدمرة بشكل واسع لمفهوم وبنية الدولة العثمانية. ولم تشدد الدولة التي تأسست قبل كل شيء على الدين، والشريعة على إخضاع أتباعها للدين المهيمن. وكان نظام الملة يهدف إلى حماية الإسلام عبر عزل المجموعات الدينية المتمردة. لكن ذلك أعطى هذه المجموعات تجربة مشتركة تفكر كقوميات. ونتيجةً

لذلك نشأ تمرد في صفوف المسيحيين الخاضعين للحكم العثماني، وفي بعض النقاط القريبة من المركز. وتمرد الصرب قبل خلع السلطان سليم الثالث، وتلاهم اليونانيون بعد انتهاء حروب نابوليون، وأجبروا الحكم العثماني على القبول باستقلال اليونان تحت ضغط القوى الأوروبية. واكتشف البلغار أنهم يشكلون أمة أيضاً، وكذلك الأرمن في شرق الأناضول.

ومع الوقت، اكتشف العرب المسلمون أيضاً هويتهم القومية، لم تشكل القومية في صفوف الشعوب التابعة العلامة الوحيدة للتفكك. فقد انفصلت مصر عام ١٨٠٥، واستقلت فعلياً. وفي عام ١٨٣٠، بدأت فرنسا بغزو الجزائر، واستمر الروس بالهجوم من الشمال في سلسلة حروب احتدمت في بلاد القرم حيث انضمت إليها فرنسا وبريطانيا للدفاع عنها. وقد اجتمعت القوى الغربية أيضاً على ضم أجزاء من تركيا في وقت ما كما حصل عام ١٨٧٨ عندما استولت بريطانيا على قبرص وحصلت فرنسا على الموافقة بغزو تونس، وأخذت روسيا مقاطعات الشمال كتعويض.

وخلافاً للثقافة التركية الأساسية للدولة العثمانية، كانت شعوب الملل المسيحية، أو اليهودية الأكثر تغرباً، وكانوا أول من تلقف الغريب لأهداف خاصة، وليس كفكرة قومية بالرغم من أهميتها، وقاموا بالدعوة للقيم الغربية وطلبوا مساعدة الغرب في ثورتهم. وبدا الغرب كحليف لهم ضد حكامهم العثمانيين، وشكلت الدعوة إلى ديانة مشتركة مصدراً فاعلاً للتعاطف في أوروبا الغربية. وبالفعل، جاءت الديانات المسيحية واليهودية إلى أوروبا في الشرق الأوسط، وتمركزت هناك ونظر الأوروبيون إلى ما تبقى من ممارسين لعقيدتهم في الشرق الأوسط كأنفسهم. وتطلع مسيحيو البلقان أيضاً نحو الغرب طلباً للمساعدة؛ لأن تيار التجديد في النموذج الأوروبي الغربي كان قوياً بين الملل أكثر منه في القطاعات الرئيسة في المجتمع العثماني.

شكل التحديث المؤثر صعوبة بالنسبة للدولة العثماني وحكامها. وكانوا كأمثالهم في اليابان حساسين لحقيقة أن تخلفهم الواضح أدى إلى احتقار الغرب لهم. لكن

الإسلام كان عصب هويتهم الدينية والثقافية وكان للدين موقع السلطة بالنسبة للمجتمع العثماني. واحتاجت الإصلاحات الجذرية التي فرضت في اليابان من قبل نخب MEIJI إلى تحولات ثورية أكثر تعقيداً في المجتمع العثماني وكانت بطيئة. ومع ذلك، حصلت تحولات راديكالية قليلة كانت كافية لإنقاذ الإمبراطورية العثمانية من التجزئة بين القوى الأوروبية مؤقتاً. وكانت الإصلاحات العسكرية في مقدمتها. ففي عام ١٨٢٦ تزعم السلطان الثاني ثورة الانكشارية ثم حوّل قوته المدفعية الجديدة ضدهم.

وقد تبع القضاء على القوى الرئيسة للحرس القديم إلغاء الانكشارية في جميع أنحاء الإمبراطورية واستبدلوا بقوة عسكرية على النمط الأوروبي. واستتبع ذلك وصول ضباط يتمتعون بثقافة غربية إلى مراكز جديدة في السلطة، وقد ساعد هؤلاء الضباط المدربون في الغرب على إفساح المجال أمام بعض النخب للانخراط في العلوم والثقافة الغربية. وقد سافر العديد من الشباب إلى أوروبا الغربية لتلقي العلم، خاصة إلى باريس وإلى المدارس التي أُنشئت على النمط الفرنسي في الإمبراطورية العثمانية. وكانت التغييرات التعليمية تدريجية. لكن كان لها أثر متنامٍ على مجمل الطبقة الحاكمة من ١٧٩٠ وحتى بداية ١٩٠٠، وفي النهاية كان لهذه التغييرات التأثير الأقوى على الإطلاق.

وقد شهد تحديث الحكم تطوراً مميزاً منذ أواسط القرن التاسع عشر، وكما حصل في اليابان في المدة نفسها، كانت مشكلات اتخاذ القرار السياسي مرتبطةً بمشكلات الإدارة مع اختلافات مهمة. ولمواجهة التهديد الغربي، تعرضت كل البنية الإدارية لإعادة بناء من أعلى الهرم إلى أسفله وفق النموذج الغربي. لكن هذه التغيرات نفسها أحدثت مشكلة جديدة. فقد فسحت المجال للسلطان، ومحيطه لاستخدام المركزية الجديدة للسلطة لمصلحته الخاصة. واتهمت المعارضة المحكمة بالاستبداد لسبب ما. وقد تجاوزت الحكومة المركزية السلطات التقليدية المحلية للأعيان وحددت الامتيازات الخاصة بالملك، وبالرغم من أن السلطة الجديدة للدولة

كانت ضرورية للدفاع الذاتي، فقد ظلت مشكلة السيطرة على السلطة المركزية دون حل. وكما حصل في اليابان، كان لدى الحكومة العثمانية خيار وحيد لحل هذه المشكلة يتمثل بتحويل الملكية إلى ملكية دستورية. ففي عام ١٨٧٦ وضع دستور فعلي، لكن السلطان ألغاه بعد سنتين من تطبيقه بشكل متقطع ولم يكن لإلغائه أي نتائج تطبيقية بشكل متقطع، ولم يكن لإلغائه أي نتائج سياسية خطيرة. في الواقع حصل قليل من الدعم من خارج البيروقراطية نفسها وفي صفوف عدد قليل من الإصلاحيين.

وكانت البلاد محافظة بشكل واسع، وخاضعة لسيطرة العلماء والعادات الإسلامية. وقد أعاد الإصلاحيون توجيه معظم الإدارة الحكومية لكنهم لم يتجرؤوا على القيام بإصلاح ديني وفشلوا في محاولتهم إقامة ملكية دستورية في مجتمع إسلامي محافظ.

## الشباب الأتراك والثورة الفاشلة:

في الثلاثة عقود الأولى بعد قمع الدستور من ١٨٧٨-١٩٠٨ حكم السلطان من خلال وزارات معينة. لم يكن عبد الحميد الثاني ١٨٧٦-١٩٠٩ رجلاً تقليدياً عن قناعة، وقد حاول إنقاذ الدولة العثمانية بقدر المستطاع ورأى واجبه قمع المتجددين والقوميين المتمردين، لكن التحديث التدريجي حصل مع ذلك. وتطلب التهديد الروسي والقوميون البلقان بيروقراطية فاعلة وجيشاً مؤلفاً من ضباط ذات ثقافة غربية.

وكان رجال هذا الجيل الجديد نواة الحركة الثورية. وقد أعطوا لأنفسهم اسم الشباب الأتراك، وكان لهذا الاسم صدى مشترك في آسيا الوسطى والغربية على الصعيد القومي. ولكن ذلك لم يشكل ثورة من القاعدة. فقد كان الشباب الأتراك من أعلى صفوف المجتمع العثماني، وخاصة من العناصر الشابة في القطاع العسكري. ولم يكونوا ثوريين بمعنى الانقلاب على المجتمع العثماني كما حصل راديكالياً مع طبقة Meiji في اليابان في عقود سابقة. وهدفت ثورتهم أن تكون محافظة فعلياً من خلال تحديث قابل للدفاع عنه بقوة لاعتقادهم بأن استبداد السلطان دمر البلاد.

وفي عام ١٩٠٨، اتخذت ثورة تركيا الفتاة شكل انقلاب عسكري دون مساندة شعبية قوية، وكان الجيش في الواقع السلطة الفعلية الوحيدة لمواجهة السلطان.

ولدى وصولهم إلى السلطان أعاد الشباب الأتراك دستور ١٨٧٦. الذي لم يكن ليبرالياً بشكل خاص في نصوصه الحالية. وبالفعل، شكلوا طبقة تحكم من خلال السلطان الذي بقي في الحكم حتى هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا.

كانت تجربة الشباب الأتراك خلال عشر سنوات حكمهم مختلفة بشكل كبير عن تجربة الطبقة اليابانية الحاكمة في العقود السابقة. وقد انبثقت التجربتان من قمة القيادة العسكرية للبلاد. وأراد الطرفان التحديث للحفاظ على المجتمع الذي عرفوه. وقد أسست الطبقة اليابانية الحاكمة يابان عصرية. وقاد الشباب الأتراك الإمبراطورية العثمانية إلى هزيمة عسكرية دمرتها بشكل فعلي.

وهنا «تفسير واضح للاختلاف يتمثل باختيار الإمبراطورية العثمانية للجانب الخطأ في حرب أوروبية مهمة، بينما تجنبت اليابان خوض أي حرب ضد قوة غربية حتى أصبحت قوية بشكل كاف لكسب الحرب ضد روسيا عام ١٩٠٥ لكن بمعزل عن الأخطاء الواضحة بعد حدوثها، كانت لدى الإمبراطورية العثمانية مشكلات خاصة. كانت إمبراطورية مسلمة تحكم العديد من غير المسلمين. ولم يكن لدى الإصلاحيين MEIJI في اليابان مشكلة قوميات لمعالجتها. وكان المسار البديل للشباب الأتراك يهدف إلى بعض التحديث، لكنه توقف عند الإجراءات الناقصة التي يمكنها تغيير الطابع الإسلامي الأساسي للدولة. وأثار القيام بذلك إلى تمرد لدى الملل المسيحية التي كانت نفسها متغربة. ومن خلال خيارهم المنطقي، قام الشباب الأتراك على سياسات أسلافهم. وعمدوا إلى قمع معارضة الملل، وحاولوا قمع الثورات القومية التي أدت إلى حربين في البلقان أدت إلى تأزيم العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا وقادتهم إلى دخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.

وانتهت الحرب بهزيمة، حددت أي توجه للحكومة العثمانية في ذلك الوقت للتصرف بحكمة أكثر. وقد بدأت الحرب في البلقان، في المقاطعات العثمانية السابقة، وكانت أسبابها تتعلق بمشكلات الأقليات القومية، واللغوية التي فشل العثمانيون في حلها. ومن الواضح أن الذين خلفوهم في البلقان الإمبراطورية النمساوية الهنغارية أولاً وبعدها الجمهورية اليوغسلافية والدول الأخرى، فشلوا أيضاً في حل هذه المشكلات.

## الحالة السياسية بعد خسارة الحرب:

بعد عام ١٩١٨، اعتمدت خيارات التخلص من بقايا الإمبراطورية العثمانية على الحالة الدبلوماسية والعسكرية في ذلك الوقت، ففي صيف ١٩١٨،خسر الألمان الحرب في أوروبا الغربية وكانت هزيمة العثمانيين في الشرق الأوسط واضحة، وقد انسلخت عنها المقاطعات العربية مع تقدم الجيوش الحليفة في البلقان وفي المشرق. وقد فرّت الحكومة التركية في تشرين الثاني إلى المنفى ووقّع السلطان على وثيقة استسلام قبل أيام من استسلام ألمانيا.

وقد وصلت البحرية البريطانية إلى البوسفور مقابل مدينة استنبول.

وخلال الحرب، وضع الحلفاء خططاً متنوعة لتقسيم تركيا، خططاً مثلتها ضرورات المرحلة، وقد وعدت إحدى هذه الخطط منطقة واسعة في الأراضي العثمانية لروسيا التي كانت مستمرة في الحرب، لكنهم لم تكن لديهم النية بالحفاظ على وعودهم بعد نجاح الثورة الفرنسية. وقدموا وعوداً أخرى لليونان، وإيطاليا فيما يتعلق بأجزاء في الأناضول، ووعود متناقضة في المشرق للعرب واليهود الصهاينة. وكان هناك تفكير مسيطر وراء العهود المحددة من قبل الطبقة السياسية في بريطانيا، وفرنسا وإيطاليا يتمثل بعدم اعتبار تركيا دولة مهزومة وعدو حضاري مثل ألمانيا، بل كدولة يجب أن تعامل كما عوملت ممالك أخرى غير غربية خلال العهود الإمبريالية الكبرى، وكانت غايتهم تجزئة الإمبراطورية العثمانية وتقسيم الباقي إلى

مناطق نفوذ مما أعطى فرنسا وبريطانيا وإيطاليا على التوالي سلطات واسعة في الإمبراطورية العثمانية السابقة على ما تبقى في الدولة العثمانية شبه المستقلة وحتى كان عام حديث جدي حول وضع وصاية أمريكية على ما تبقى في تركيا لفترة انتقالية لحين تكون جاهزة لحكم نفسها، وذلك بتفويض من عصبة الأمم، وعندما وقّعت الحكومة العثمانية الاستسلام، كانت معظم الأراضي الخاضعة لها غير محتلة من جيوش الحلفاء. ولم يكن ممكناً تجزئة تركيا دون قتال دون إذعانها. ففي أيار ١٩١٩، بدأ الحلفاء بغزو الأناضول مع نزول القوات اليونانية بحماية البحرية البريطانية والفرنسية والأمريكية. وكانت نية اليونانيين جعل ذلك بداية لإقامة إمبراطورية يونانية جديدة تعمل على احتلال ضفتي بحر إيجه كشكل من أشكال إحياء الإمبراطورية البيزنطية مكان الإمبراطورية العثمانية.

وبالرغم من خسارة الحرب وتوقيع الاستسلام، أثارت هذه الإجراءات مقاومة جديدة، ليس من جانب الحكومة العثمانية بل في رابطة غير رسمية للدفاع مستمدة سلطتها الأساسية من الباب العالي ومستقلة فعلياً عن السلطان العثماني في اسطنبول، كما نظم شارل ديغول حركة مقاومة في الحرب العالمية الثانية مستقلة عن الحكومة الفرنسية التي استسلمت.

وفي عام ١٩١٩ حتى ١٩٢٢، قاتلت الحكومة الجديدة من خلال قيادتها الجديدة في أنقرة الغزو اليوناني من جهة، والسلطان والعناصر المستسلمة من جهة أخرى.

وفي عام ١٩٢٣، حصلت هذه الحكومة على تسوية جديدة من الحلفاء الغربيين، معاهدة لوزان، كبديل عن اتفاق السلام الموقع مع السلام والذي لم يستطع الحلفاء تطبيقه.

من حيث الجوهر، أعطت معاهدة لوزان حكومة أنقرة حدود تركيا الحديثة وألغت الشروط التي تضع تركيا تحت السيطرة غير الرسمية للدولة الأجنبية. وقد شكل ذلك إنجازاً مهماً لشعب مهزوم لدولة اعتبرها الأوروبيون الغربيون متخلفة إلى درجة

طلب رعاية غربية حتى تصبح قادرة على حكم نفسها. وكان مصطفى كمال المهندس العسكري للانتصار والذي سمى نفسه بعد ذلك أتاتورك، وهو رجل يتمتع بخبرة عسكرية كبيرة. وقد أعطته انتصاراته مع أعوانه منزلة مرموقة ساعدته على تمرير قرارات حول المسار المستقبلي للتاريخ التركي، نوعاً من الخيارات التي أعطت للمجددين العثمانيين في القرن التاسع عشر حرية تحرك بخلاف ما تمتعت به سلطة MEIJI عام ١٨٧٠.

في عام ١٩٢٤ أعلن مصطفى كمال دستور الجمهورية التركية وأسس بموجبه حزب الشعب الجمهورية الذي حكم تركيا كحزب الدولة الوحيد من عام ١٩٢٤ إلى ١٩٤٥. وحتى بعد خسارته لوضع الحزب الوحيد، بقي في السلطة حتى عام ١٩٥٠ رغم وفاة مصطفى عام ١٩٣٨. وجعل ثبات السلطة من الممكن للنظام الجديد إقامة مسار جديد للبلاد مثلما فعل قادة MEIJI الأصليين والذي لم يتغير حتى بعد رحيلهم عن السلطة.

## مشكلة الهوية:

واجهت القادة الجدد للجمهورية التركية خيارات متنوعة، وكانت إحدى المشكلات الأولى إيجاد هوية قومية قابلة للنجاح، وتعد الجمهورية التركية بشكل واسع نتيجةً لقرارات مصطفى كمال وأعوانه يمكن تجنبها لكنها كانت حاضرة. ويتمثل الخيار الأول بإعادة صياغة فكرة الإمبراطورية العثمانية ومحاولة استعادة بعض أو كل مناطق البلقان التي فقدها وكذلك المناطق العربية في الجنوب الشرقي. ويمكن أن يكون الخيار الثاني محاولة قيادة العالم الإسلامي ككل. وقد كانت المطالبة بالسلطان العثماني كزعيم روحي للمسلمين في كل مكان في العقود السابقة للحرب مرتكزة على حق السلطان أن يكون خليفة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لكن ذلك كان بعيداً عن توجهات الكماليين الفكرية.

وتمثل الخيار الثالث الأكثر واقعية بالرغم من قسوته بفكرة اللغة المشتركة للقوميات في أوروبا الشرقية وبمحاولة بناء تركيا في وسط أمبراطورية جديدة من ضمنها الأمة الثيرانية. وكان هناك ملايين المتحدثين باللغة التركية يعيشون في الشرق في مناطق خاضعة لروسيا التي تواجه اليوم حرباً أهلية بعد الثورة، وربما وجدت رغبة لدى القوى الغربية بتشجيع تركيا على ضم القوقاز وماوراءه. وفي أوائل العشرينيات ذهب وزير حرب سابق في الحكومة التركية الحالية شرقاً في محاولة لقيادة مقاومة في آسيا الوسطى ضد السيطرة السوفياتية.

كان الخيار الرابع، والذي جرى اختياره بالفعل، العمل ضمن وحدة الأراضي المتبقية والقبول بالحدود الواردة في معاهدة لوزان، وكان هذا الخيار غير متوقع كما بدا، وشكل مفهوماً أضيق من فكرة الأمة الثيرانية وفي حلول الأمة الإسلامية. وقد استخدم الأوربيون عبارات الترك أو التركي للإشارة إلى العثمانيين وفعلوا ذلك بسبب تميزهم القومي واللغوي. وقد بدأت شعوب الأناضول مؤخراً التعريف عن أنفسهم بالأتراك، كلمة تنطبق على الأناضوليين والمزارعين غير المتخصصين. وقد بدأت كلمة ترك تأخذ معانيها الصحيحة فقط إبان الإمبراطورية العثمانية بعد تمرد الشباب الأتراك عام ١٩٠٨. ولم يتم استخدام الاسم رسمياً في البلاد في أي قانون حتى عام ١٩٢١، ولم يستخدم نهائياً حتى إعلان دستور الجمهورية التركية عام ١٩٢٤.

وقد ظهر الكيان التركي الذي اكتسب معنى الدولة الأمة، لكن كانت له أيضاً بعض عناصر الأمة التي يجب بناؤها وتكون حدودها كل الشعوب التي تدين بالهوية التركية. وبعد الحرب العالمية الأولى، حصل تغيير سكاني مهم بين تركيا وكلٍ من اليونان وبلغاريا، وترك مشكلات قومية لازالت قائمة تشمل أتراكاً في قبرص وأكراداً غير أتراك ضمن الجمهورية دون إغفال السكان المسلمين غير الأتراك في ألبانيا والبوسنة والذين ظلوا منذ الحكم التركي.

## بناء الأمة التركية:

كان إنشاء القومية التركية مقصود جزئياً ومصادفة. وقد هزمت الدولة التي أنشأها مصطفى كمال اليونانيين والحلفاء وكذلك السلطان العثماني الذي تآمر معهم. وقد توجهت الدولة العثمانية المتناحرة قرن من التحديث العسكري الهامشي بهزيمة كارثية عام ١٩١٨.

لكن حتى خلال حروب ١٩٢٠-١٩٢٣، ظن معظم مقاتلي المقاومة أنهم يقاتلون في سبيل السلطان الذي اعتبروه سجيناً لدى الانكليز.

وكان مصطفى كمال يمهد الطريق في أنقرة لمفهوم آخر للولاء عبر إصدار سلسلة جديدة من القوانين الأساسية من خلال المجلس. وأعطت هذه القوانين وغيرها حق السيادة للشعب التركي. ومن أجل جعل ذلك أكثر قبولاً لدى المؤمنين، عمد المجلس إلى إلغاء الصفة الشرعية عن الخليفة المخلوع وأعطوها لابن عمه بشكل مؤقت.

بعد ذلك، نقل قادة الثورة العاصمة من اسطنبول إلى أنقره. وكانت عملية النقل ترمز جزئياً إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية لكنها نقلت مركز الحكومة من موقع عالمي مرتبط بالروائع العثمانية والبيزنطية إلى مدينة تركية جبلية. وفي عام ١٩٢٤، وبعد إتمام عملية النقل الرسمية، جرى إلغاء مركز الخليفة وأصبحت تركيا دولة علمانية منظمة جمهورية يرأسها مصطفى كمال.

من المستبعد تسامح العديد من أصحاب النفوذ إزاء هذه التحولات السريعة، لكنهم تسامحوا تدريجياً.

وقد جعلت خيانة السلطان الواضحة من خلال التعامل مع الإنكليز مقابل انتصارات مصطفى كمال العسكرية، التغيرات ممكنة فبينما كانت صعبة في ظروف أخرى.

## مشكلة الدين:

ومن بين هذه التغييرات، كان الانتقال من مفهوم الدولة الإسلامية، حيث كانت



obeikandi.com

الكنيسة والدولة مجتمعة حاسماً. وشكل تحرك مصطفى كمال معركة مبكرة في الصراع بين العلمانية، والإسلام والذي تكرر في أنحاء العالم الإسلامي خلال بقية القرن. وكان إلغاء مركز الخليفة الرمز الأهم البارز في كل البرنامج الذي تلاه مباشرة عام ١٩٢٤-١٩٢٥. واستمرت عملية إعادة التنظيم لتلغي منصب شيخ إسلام ووزارة الشريعة الإسلامية والمدارس الدينية المتفرقة، والكليات التي تدرب العلماء، والمحاكم الشرعية حيث كانت تطبق الشريعة الإسلامية، وقد أدت هذه الإجراءات إلى أول وأخطر ثورة مسلحة لكن هذه الثورة لم تنبثق عن علماء الدين في المدن كما كان متوقعاً فقد جاءت من سكان الريف المؤمنين ونُظمت من خلال الطرق الصوفية المشتقة من كلمة، طريقة العربية (طرق بالجمع) وقد تشكلت هذه النظم الإسلامية الدينية لأول مرة في أواخر العصور الوسطى عبر المتصوفين الباحثين عن طريقة لمحاصرة تآكل التمسك بوحدانية الله، وبحثوا عوضاً عن ذلك من أشكال للعبادة تعطي للفرد شعوراً بالتواصل الروحي مع الله. وعلى الأغلب فقد تأسست الطرق الصوفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي لمواجهة التطرف الديني لعلماء المدينة. وقد انعكست الطرق الصوفية على العديد من الناجين من تهمة الإلحاد في مختلف الديار العثمانية وغيرها وكرّست تقديس الأنبياء، أو الأولياء وتقديس الطلاسم وممارسات السحر المتنوعة.

وقد أوضحت حقيقة بقاء هذه الطرق الدينية قويةً في الريف بينما ضعف علماء الدين في المدن في وجه قمع الدولة إلى أن وصلت تيارات التجديد في القرن الماضي في تعرية الممارسة الدينية للطبقة الراقية في المدن دون المس بالدين الشعبي في الريف. وكانت الطبقة الفقيرة من سكان المدن ريفية الأصل وتدين بالولاء الشخصي لزعماء طريقة معينة.

وحصلت ثورة ١٩٢٥ انطلاقاً من الريف لكنها تضمنت قضايا دينية، وعرقية وزودت مصطفى كمال بذريعة للقضاء على النشطاء المشبوهين في جميع أنحاء البلاد. وكان زعيم الطريقة النقشبندية زعيم هذه الحجة، وكذلك كل كردي ينتمي



obeikandi.com

غالبية أتباعه إلى الأكراد المقيمين شرق الأناضول. وقامت الحكومة بقمع الثورة بسهولة، وذهب مصطفى كمال إلى حد إلغاء الطرق الصوفية وفق القانون وأصدر مراسيم أخرى ترفض بشكل قاطع المعتقد القديم والتقاليد. وتم منع ارتداء الطربوش، الرمز الرئيس المتبقي من الزي الإسلامي للرجال، بينما تكيفت طبقة المدن مع ارتداء الزي الغربي، وأعادت هذه التغييرات السطحية إلى الأذهان منع بطرس الأكبر ترك الذقون في روسيا قبل قرنين وإجراءات سطحية مشابهة لطبقة MEIJI الحاكمة في وقت سابق في اليابان.

وأضيفت إجراءات أخرى مهمة عام ١٩٢٦ مع إلغاء القانون المدني الإسلامي واستبداله بقانون جديد يستند إلى القانون المدني السويسري. وكان هذا التغيير رئيساً في القانون والممارسات المدنية والمعتقدات وأثر على الحياة العائلية بمجملها، ملغياً تعدد الزوجات ومتجهاً نحو النموذج الغربي لوضع المرأة علماً أن سويسرا لم تكن في الطليعة في العشرينيات من حيث تطبيق حقوق المرأة.

واتبع المجردون ذلك عام ١٩٢٦ بجعل الأبجدية التركية رومانية. وحتى ذلك الحين كانت اللغة التركية تكتب بحروف عربية بما أنها اللغة التي أنزل الله بها القرآن على محمد ﷺ وكانت الأبجدية الأوروبية بمفرداتها الواضحة أكثر ملاءمة لكتابة التركية من العربية، لكن العديد من الناس نظر إلى هذا الإجراء في حينه كعملية علمنة. وقد نتج عن تعليم الأطفال الحروف الغربية سلخ هؤلاء عن الكتابة العربية والنموذج العربي الذي كان وسيلة اتصال جامعة في الأمة الإسلامية.

لكن الأبجدية العربية لم تلائم اللغة المحكية حالياً؛ لذلك انسلخ الأدب التركي واللغة المحكية عن بعضها، وبعد تغيير اللغة، قادت الأبجدية الجديدة بعد دمجها بالتعليم الرسمي إلى ازدياد المعرفة وفتحت مستوى جديداً من التواصل الواسع وتحركاً أساسياً نحو اقتصاد قادر على درجة إنتاج عالية واستهلاك كبير. وكان

الوضع مشابهاً في اليابان، فقد شكل المستوى العالي للمعرفة في أواخر حكم توكوغعايا خطوة مهمة نحو التحديث هناك ومع بداية مرحلة الكساد، مر برنامج مصطفى كمال التجويدي بأكثر المراحل راديكالية. ولم ينجح التجديد الاقتصادي بسرعة كما حصل في اليابان في أوائل حكم MEIjI لكنه أحدث تحولات جوهرية في مجالات أخرى في المجتمع التركي، والثقافة التركية، وربما تغييرات أكثر أهمية مما قامت به اليابان في الفترة نفسها.

وقد وضع مصطفى كمال تركيا على مسار جعلها جزءاً ثقافياً من أوروبا كما فعل بطرس الأكبر في تحديث روسيا. وفي كل من اليابان وتركيا، لم يصل التحديث إلى التغريب الكلي، لكن مصطفى كمال بذل جهداً في وضع تركيا في اتجاه العلمنة الغربية بالرغم من أنه ظل مسلماً. كان يريد نجاحاً في تأسيس قومية تركية قادرة على إعطاء معنى للتضامن في دعم الجمهورية، لكن السياسات التركية ظلت بعد نصف قرن من وفاته قابلة للتأرجح بين العلمنة الكمالية وإعادة إحياء المشاعر السياسية الإسلامية. ولم يستطع مصطفى كمال -بالرغم من محاولته- حلَّ مشكلة القوميات كلياً؛ طالما رفضت عناصر مهمة والأقليات الكردية القبول بقانونية وضعها ضمن الجمهورية التركية.

## ردود شخصية وخيالية

اتخذت بعض ردود الفعل على الوجود الغربي شكلاً سياسياً علنياً ومنظماً، لكن كان للعديد من الردود المميزة تعاطٍ ضئيل مع السياسات، وقد احترم بعض الزعماء الاجتماعيين والمفكرين، الظاهرة الغربية، وطرحوا برنامجاً للتعامل معها وكانت ردود الفعل الأخرى شخصية وغير رسمية، كاختيار الملابس أو لغة التعبير العام. بأي حال كانت ردة الفعل على الوجود الغربي أداء خياراً ثنائياً بين التقليد المحلي من جهة والغربي من جهة أخرى، وكان هناك مجال دائم للابتكار الذي يؤمّن عدداً من البدائل.

وتعاطي أداء يتمتع بالغنى مع خيارات وضعها زعماء غير غربيين يتمتعون بالفصاحة، وتعامل كُتاب السيرة -وبعيداً عن مؤلفاتهم- مع شخصيات مثل غاندي

نهرو ومماثلين لهم في مجتمعات أخرى. وتحري علماء الاجتماع والمؤرخون أيضاً أدى إلى ردود أقل توثيقاً كردود الفلاحين المثقفين الذين سعوا إلى التفهم والرد على الظروف التي يواجهونها في عالم متغير.

وهناك مدخل آخر أكثر شمولاً يتمثل بدراسة ردود الفعل الشخصية على التأثير الغربي عبر تاريخ الجماعة. وقد تعاطى ليو سبيتزر Liwes in betwern بشكل مقارن مع تعديلات حول العمق، الديني والطبقة في مجتمعات متنوعة ثقافياً. وحدد ثلاث عائلات من بين عدد من الأجيال في مناطق مختلفة من العالم. وكانت عائلة ماي في سيراليون المنحدرة من عبيد قبض عليهم في البحر ووُطِّنوا هناك من قبل البحرية البريطانية في أوائل القرن التاسع عشر. وقد أصبح العديد من عائلة الماي في أواخر القرن أعضاء في نخب الكريول لتلك المستعمرة. وكان المثل الثاني عائلة ريبوساس البرازيلية الإفريقية التي انتقلت من العبودية إلى وضع نخبوي في المجتمع البرازيلي. كان المثل الثالث استيفان زويغ في هايسبورغ فينيا، وهي عائلة يهودية سعت إلى تقبلها في الثقافة المسيطرة. وفي الحالات الثلاث، وجد أعضاء العائلة أنفسهم يشكلون مجموعة سائرة نحو الاستيعاب ضمن النخبة المسيطرة لكن بقبول محدود.

ويقدم فرانسيس كارتوتين في كتابه «بين عالمين» مدخلاً آخر إلى اتصال الثقافة على المستوى الشخصي. إنها دراسة سيرية لعشرين شخص عملوا مرشدين ومترجمين ووسطاء بين الغربيين وآخرين على حدود الاتصال مع غير الغربيين. وكان العديد من أتباعها نساءً أُغفلن في ظروف مختلفة من المؤرِّخين السابقين.

وكانت دونا مارينا أشهرهن التي ترجمت لكورتيس إبان الغزو الإسباني للمكسيك وسكاجاوي التي رافقت لويس وكلارك إلى المحيط الهادي في أوائل القرن التاسع عشر. وتقدمت كارتونين هذه النساء وغيرهن كمترجمات بين الثقافات وليس كشخصيات تافهة وورمنسية.

وتتوافر المظاهر الشخصية للتفاعل الثقافي أيضاً في الروايات وتعطي رواية سينوا أشيبي «الأشياء المبعثرة» التي نشرت في نيجيريا الشرقية في بداية القرن

العشرين نظرة مفصلة للفرد الواقع بين الثقافات في العقود الأولى للحكم الاستعماري. وقد تعمق رواة ومؤلفون مسرحيون آخرون في بحث موضوعات مماثلة في مؤلفات أخرى. وتعطي مثل هذه الحسابات بديلاً ذا قيمة لشخص عادي في دراسة السلوك الجماعي الموجود لدى الحركات السياسية، أو في التصريحات المتطورة لأشخاص اعتبروا كباراً بين قومهم في حينه.

## الأحلام الألفية:

تمضي الرواية التقليدية فعلاً وقتاً طويلاً في تسجيل أعمال الأشخاص المعروفين بالكبار. وتسجل أعمال الكيانات أيضاً التي تصنّفها حضاراتٍ على حساب البرابرة عبر الحدود. وغالباً ما تكون الرواية الكبيرة قصة ناجحة كما سجل نُسَّاخ الجهة الجيدة. غير أن سياق التغيير في المجتمعات الإنسانية يتضمن البرابرة والمتحضرين والنساء والرجال والخاسرين والرابحين، وتشكل أعمالهم أيضاً جزءاً مهمّاً من التجربة الإنسانية. يعد صعود الغرب وردة فعل العالم عليه حديثاً بحيث يترك بصمات واضحة من الردود الإنسانية التي يصعب اقتفاء أثرها في العصور السابقة، وفي نهاية القرن العشرين، ليس هناك أدنى شك في نجاح تحديث القومية لكن بعض الأشخاص العاديين تأثروا بالغرب بأساليب أقل عملية وقليلة الحظ.

وكان اللجوء إلى مساعدة خارقة رد الفعل المشترك لمقاومة القوة المعادية. وتمارس معظم الأديان شكلاً معيناً من من اللجوء إلى التدخل الإلهي، وقد اتخذت هذه الدعوات عدة أشكال في مواجهة السلطة الغربية، عبر صلوات شخصية ومجموعة حركات منظمة. كان لهذه الحركات الكبيرة دائماً عناصر ألفية؛ لذا كان للعبارة نفسها عدة معانٍ ممكنة، وتعتبر أصول هذه الحركات متنوعة، لكن يعود أحدها إلى بداية المسيحية والديانات الأخرى الشرق أوسطية التي تتمسك، بأن العالم بدأ بالخلق وسينتهي في تاريخ محدد في المستقبل عندما يعلن الله عن إرادته بيوم الحساب. وتوقع العديد من المسيحيين السابقين قدوماً قريباً ليوم الحساب،

وتوقع بعضهم حصوله في الألفية الأولى بعد المسيح، وبالنسبة لمعظم المسيحيين في وقت لاحق، وقد تلاشى قرب حدوثه وخطط المؤمنون حياتهم على احتمال استمرار الأمور كما كانت في الماضي القريب.

غير أنه من حين لآخر، وضع المؤمنون في عدة ديانات مختلفة توقعاتهم حول التحول الجذري في المستقبل القريب ودائماً مع تاريخ محدد. ودخل بعض هذا التوقع للتغيير الجذري ضمن العديد من الحركات السياسية الواردة في الفصل الأخير خاصة تلك المعالجة في كتاب مايكل أداس (رسل التمرد). وكانت بعض عناصر الألفية حاضرة في التمرد الهندي عام ١٨٥٧ لكنها كانت أقوى في انتفاضة تايوان المعاصرة في الصين واستمر بعضها في حركة الملاكم المناهضة للمسيحية في شمال الصين بعد نصف قرن. وقد تراوحت قوة العنصر الألفي بشكل كبير بين الدقة والتنبؤ بتوقيت التغيير القادم دعماً إذا كان الخلاص المنشود سيكون لكل الإنسانية، أو لمجموعة معينة فقط أو ببساطة لفرد.

## الألفية المتطرفة:

من خلال تنوع المعتقدات الألفية، من الممكن تحديد عائلة من حركات التطرف حيث يُطبَّق وعد الخلاص في عالم آخر على مجموعة كبيرة، والذي كان متوقعاً حدوثه هنا الآن أو على الأقل قريباً. ونستطيع تحديد هوية هذه الحركات بالتطرف الألفي، لكنها كانت متطرفة فقط في توقعاتها الألفية. وتتفاوت في حالات أخرى بين المسالمة والعنيفة لكنها تنبئ بتحول جذري بأمر خارق وقريب ودعت دائماً إلى سلوك معين للوصول إلى الهدف. ولدى هذه الحركات الألفية المتطرفة مجموعة من الملامح المتكررة مشتركة عند العديد من المؤرخين.

وكان التحول المتوقع كلياً في الغالب في هذه المعتقدات. مفاجئاً وكاملاً وليس مجرد تحسن بل شيء يشبه الكمال نفسه، الكمال كما وصفه المؤمنون. كان قرب حدوث التحول المتوقع مهماً جداً، على امتداد حياة الناس المعاشة في هذا العالم

وليس العالم الآخر. (يخص الخلاص في العالم الآخر عائلة أخرى من المعتقدات مع أسباب ونتائج أخرى. وكانت الثورة المتوقعة تعد أيضاً جزءًا من مسار سابق للتاريخ لكن بأسباب خارقة، مخطط ومصمم له سابقاً من قبل إله أو عدة آلهة، وأخيراً، كان الخلاص جماعياً، وليس فردياً لكن المجموعة التي ستنقذ هي طائفة واحدة فقط وليست البشرية كلها، طائفة محددة هويتها كقطبة اجتماعية، طاقم من المؤمنين، مجموعة عرقية، وهو غير محدد في حالات أخرى.

ولدى الحركات الألفية المتطرفة عناصر أخرى إضافة إلى هذه الصفات المحددة تحدث أحياناً. كان أحدها جنوحاً نحو الثنائية الأخلاقية، تمييز دقيق بين الذين يستفيدون من التغيير، وأولئك الذين سيكونون خاسرين. وثم النظر إلى هذا الصراع كنزاع بين الخير والشر بشكل دائم حيث يبدو الشر منتصراً وظاهراً حالياً بينما سيتغير الوضع بأعجوبة الألفية، ولدى معظم الحركات نبي معترف به ليس بالضرورة شخص مفرد يمكن أن يكون زعيماً - غائباً - حاضراً - رمزياً. غير أن المنظم كان نادراً النبي نفسه، فقد كان دوره دائماً ترجمة النبوءة الألفية التي ستحدث وتنظم الرد.

ونشأت الحركات الألفية من هذا النوع في أوساط الناس الذين يشعرون بالحرمان الشديد غالباً من الناحية المادية، مع ذلك، كان حرمانهم النسبي أحياناً غير موضوعي أكثر منه فعلي أو محسوب. وتأتي الثورات السياسية نادراً من الطبقات الدنيا في المجتمع، ويفتقر المحرومون الحقيقيون عادة إلى قوة للتحرك بفاعلية. وفي أغلب الأحيان تأتي الثورات السياسية في أوساط الميسورين نسبياً الذين ليسوا ميسورين كما اعتقدوا. بالطريقة نفسها نسبياً، كان حرمان الذين انضموا إلى الحركات الألفية يقاس غالباً ضد الظروف السائدة في ماضٍ حقيقي أو خيالي.

وكانت النبوءات تميل للانتماء إلى أحد النمطين الممكنين. ويعلن النمط الأول ببساطة أن الألفية قادمة، ويدعو الناس للاستعداد فقط وليس إلى التحرك. ويدعو النمط الآخر إلى التحرك ويحدد غالباً التضحية للحصول على التغيير المتوقع.

وكان التحرك المطلوب يتم غالباً عبر طقوس احتفالية، وممارسة دينية للأفعال المعتبرة مذنبة وغير منتجة سابقاً، وكان هناك إصرار على سلوك أخلاقي صادق ومشترك أيضاً.

عندما تحدد النبوءة الألفية موعداً واضحاً ويصل ذلك الموعد دون حصول التغيير مما يحدث أزمة واحدة، بالنسبة للنبي وأتباعه أو أتباعها، كانت هناك حلول كثيرة ممكنة. ويتمثل الحل الأول بإعادة جدولة الموعد مع خسارة متوقعة للمصداقية بعد كل فشل حتى تلاشى هذا الأمل بالألفية ضمن إيمان رمزي بمستقبل بعيد. وقد تعامل المسيحيون بشكل عام مع توقعات الألفية بهذه الطريقة. وقد اختفت حركات ألفية أخرى بسهولة وغاص أتباعها مجدداً في إحساسهم بالحرمان وتوجهوا نحو نبي آخر إذا ظهر. أما الاحتمال الثالث فقد تمثل بزعامة تتحول عن الأحلام الخيالية وتسعى لحلول أكثر براغماتية تتراوح بين أشكال متنوعة من النشاط السياسي والتمرد العنيف. وقد تم توضيح هذه النماذج العامة بشكل أفضل من خلال أمثلة مستقلة.

## رقصة الشبح:

تعد ديانة رقصة الشبح الأكثر شيوعاً من بين الحركات الألفية في أوساط هنود أمريكا الشمالية. وفي الواقع لم تكن حركة مفردة، بل تطورين متصلين انتشرا عبر مركز في فيغادا الغربية. وقد حصل الأول عام ١٨٧٠ وفي السنوات التالية وانتشر غرباً نحو كاليفورنيا وجنوب أوريغون، أما الثاني الذي نشأ في المنطقة نفسها، فقد عُرف عموماً بديانة رقصة الشبح عام ١٨٩٠مع أنها بدأت قبل ذلك بوقت قصير لكن بقاياها استمرت حتى القرن التالي. وقد انتشرت رقصة الشبح بشكل رئيس شرقاً عبر الحوض الكبير والسهول المرتفعة حتى نهر الميسوري.

وقد حظيت الحركة الثانية بمعظم الاهتمام من الأميركيين الأوروبيين بسبب انتشارها الواسع، وفي أواسط ١٨٨٠ واجهت الحركة عداء الحكومة الأمريكية،

وتضمنت جهود الحكومة لقمعها حصول مجزرة الركبة الجريحة (Wounded Knee) وموت زعيم قبيلة السيو (الثور الجالس) المنتصر في معركة القرن الضخم الصغير Little Big horn. وكنتيجة جزئية، أصبحت موضوع دراسة تراثية تقليدية. وجاء بروز الحركتين بعد الطغيان الأوروبي الأميركي على السهول المرتفعة والحوض الكبير، حركة بدأت فقط بعد منتصف القرن. وقد وطّن السكان الكولومبيون صيادين وحطابين بشكل مبعثر وهم يعيشون على الزراعة الطبيعية وصيد الثور البري مشياً على الأقدام. في عام ١٥٢٠ أدخل الإسبان الماشية والخيل إلى المكسيك وهرب قسم منها.

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، بدَّل هنود السهول المرتفعة والحوض الكبير أسلوب حياتهم المادية بما عرف فيما بعد بثورة الحصان، وقد تعلموا ترويض الجياد البرية وتحويلها لخدمتهم؛ مما جعلهم صيادي ثيران برية أكفاء ومتحركين بسهولة كبدو أو أشباه البدو.

وبدؤوا أيضاً مع الوقت المعاناة من التأثير المبكر للأمراض الأوروبية غير المألوفة. ونظراً إلى ذلك، من المستحيل التكهن بمدى الضرر الذي سببته هذه الجراثيم المستوردة، والفائدة من الحيوانات المستوردة التي عدلت الكفة، كان يوجد ظاهرياً نوع من التوازن حتى عام ١٨٤٠ عندما جاء الجنود الأوروبيون الأميركيون، وزادوا نسبة الوفيات بواسطة الأمراض المستوردة. وقد عانى وسط المكسيك من تأثير الأمراض الدخيلة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ومع حلول القرن الثامن عشر عاد السكان الهنود إلى الثورة مجدداً، غير أن أهالي السهول المرتفعة والحوض الكبير المعزولين نسبياً، فإن التناقص السكاني توقف حتى عام ١٨٩٠ أي حتى مئتي سنة بعد وسط المكسيك. وكان المرض فقط واحداً من عدة كوارث بيئية، فمنذ وقت طويل، قتل الصيادون الأوروبيون الثيران في شرق المسيسيبي بالأسلحة النارية، لكن بقي ما يعادل الثلث، أو النصف من الثيران الكولومبية في شمال أمريكا على قيد الحياة حتى عام ١٨٥٠. وفي النصف الثاني من القرن، كانت الكمية المتبقية من



obeikandi.com

الثيران مبادة تقريباً، وقضي على نمط حياة ركوب الخيل وصيد الثيران عند الهنود حتى قبل التأثير المباشر لتوسع الاستيطان، وخسارة الأراضي الهندية من عقود ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية.

وقد جاءت النبوءة الأصلية التي أدت إلى حركة رقصة الشبح عام ١٨٧٠ في منتصف ١٨٦٠ إلى ود زبوب، وهي منطقة بافيوتسو، هندية تقع حالياً في نيفادا الغربية، وبينما كان في غيبوبة، تلقى الرسالة بأن على الشعب التجمع لتشكيل رقصة معينة في أوقات منتظمة تعيد الهنود الأموات إلى الحياة. وكان الوعد يتضمن أيضاً الحياة الأبدية لكل الهنود وموت أو اختفاء الأوروبيين، وكانت الرقصة بحد ذاتها أساساً رقصة بافيوستو دائرية تتشكل من مجموعة ضمت أيديها في دائرة منسقة لكن مع انتشار الحركة، تغير الوعد الألفي وكل الرقصة. ومع الوقت، ماتت الحركة وغالباً بسبب عدم تحقيق وعدها.

وكان أساس حركة الرقص عام ١٨٩٠ منبثقاً عن رسول آخر من بافيوستو يدعى وافوكا، ابن أحد أتباع الحركة السابقة؛ لذا فقد كانت الحركتان متصلتين بوضوح، وتضمنت رؤية وافوكا رسالة أخلاقية أيضاً. فقد حث الناس على حب بعضهم البعض، والتخلي عن الحرب والعيش بسلام مع المستوطنين الأوروبيين، وإذا أطاعوا تعليماته الأخلاقية وكذلك الرقصة الدينية، فإن الموتى والثيران ستعود إلى الحياة، ولن يكون هناك مرض أو شيخوخة بعد الآن. غير أن هذا الوعد الألفي لم يكن له تاريخ محدد للتطبيق. وكان يجب ممارسة الإصلاحات الأخلاقية مع الوقت، وكان يجب القيام بالرقصة كل ستة أسابيع ولمدة خمسة أيام كل مرة. كان يجب عودة الموتى بشكل عجائبي، لكن كان يجب أن تكون المعجزة مكتسبة، وبعد كسوف الشمس في ١ كانون الثاني ١٨٨٩ ذهب وافوكا في غيبوبة وتنبأ بأن التغيير الألفي سيحصل في صيف أو نهاية عام ١٨٩١.

وبعد توسع الحركة إلى مجموعة عرقية أخرى، حافظت على وعدها المركزي بعودة الميت، بالرغم من أن رسلاً جدداً وعدوا بأحداث مختلفة في تواريخ مختلفة

من الألفية. واتخذت ترجمات لاحقة مظهراً قوياً مناهضاً للاستيطان، منبئة بأن كارثة كبرى ستقضي على الأوروبيين مع انزلاقات أرضية وعواصف وفيضانات وستترك الهنود مسالمين، بعد ذلك، ستعود الحياة مجدداً لتغطي السهول بالاخضرار والخيول والثيران. وعوضاً عن ذلك، نظر آخرون قدماً نحو يوم يؤدي فيه إعادة إحياء الميت الهندي إلى مرحلة من التناسق العرقي للهنود والأوروبيين معاً، ودعا بعض قادة الحركة إلى حركة إيجابية أو عنيفة تجاه المؤمنين وحياة أخلاقية فقط ورقص ديني ومقاومة سلمية للجنود الأميركيين.

لكنّ هذه النظريات انتشرت بعيداً بشكل غير متكافئ، ولم يشارك فيها الجميع حتى لو تبنت قبيلة ما هذه الديانة بشكل واسع. وقد عارضت بعض الشعوب -التي تشتمل ديانتها على خشية عميقة من الأرواح- هذه الحركة بقوة؛ خاصة شعوب نافاهو وأتابسكا. وكان الوضع السياسي لقبيلة ما في أوائل ١٨٩٠ يؤثر على قبولها أو رفضها للديانة الجديدة. فقد أعاد النافاهو احتلال أراضيهم السابقة مؤخراً، على سبيل المثال، وكانوا نسبياً آمنين. من جهة أخرى، وانطلق العديد من الأبانشي في حرب عصابات كشكل من أشكال المقاومة لطغيان الاستيطان.

وقد دخل هنود السيو لتوهم حقبة أزمة في تعاطيهم مع الولايات المتحدة. وقد أعطتهم معاهدة ١٨٦٨ كل جنوب داكوفا، في عام ١٨٨٩ قلص قانون من الكونغرس أرضهم بحوالي النصف وقسمها إلى خمس محميات موزعة، وكانت منها محمية باين ريدج. وقد أدت خسارة أرضهم إضافة على موت الثيران إلى شعورهم بحرمان شديد القساوة. وفي منتصف ١٨٩٠، اعتنق ٤٠ بالمئة من قضاة محمية باين ريدج ديانة رقصة الشبح.

وفي كانون الثاني ١٨٩٠ بدأت المأساة النهائية لمجزرة الركبة الجريحة مع تحرك الولايات المتحدة العسكرية مع عملائها الهنود الذين - عوضاً عن ترك رقصة الشبح تكمل مسيرتها بسلام - أدخلوا الجنود وحاولوا قمعها بالقوة، وبدأ العنف بمعركة صغيرة قتل فيها أحد جنود الثور الجالس. ولم يعد بالمستطاع إعادة السلام بما في

ذلك ترتيب تسليم جنود السيو أسلحتهم في محمية الركبة الجريحة، لكن حصلت حالة من الذعر لدى الطرفين عند عملية الاستسلام. وقامت الخيالة بقتل ٣٧٠ هندياً بينهم العديد من العزل.

وقد استمرت ديانة رقصة الشبح لعدة عقود كحركة شعبية فاقدة بعض الأتباع عندما لم تتحقق نبوءة البعث، لكن هذه الديانة بقيت طويلاً خلال القرن العشرين مثل بقية الديانات ذات التوقعات الألفية وانتقلت من الأمل بتغيير حتمي إلى تعبير باهت بالإيمان أن الأمور ستكون أفضل في المستقبل.

## قتل ماشية شعب :Xhosa

في أواسط القرن التاسع عشر، عانى شعب XHOSA إلى الشرق من مستعمرة الكاب في جنوب إفريقية من أزمة مشابهة لتلك التي عانى منها هنود سهول أمريكا الشمالية، ونتج عن الجمع بين الغزو العسكري الأوروبي لعدة عقود متوجاً بكارثة بيئية أصابت الماشية حالة مساوية لقتل الثيران في السهول الهندية، وكان موقع XHOSA حرجاً، كونهم يتصدرون الشعب الناطق بلغة البانتو BANTU المعارض للغزو الأوروبي من الغرب، وكان العائق الوحيد أمامهم نحو رأس الرجاء الصالح، وشعوب الكوسا من السكان الأفارقة الذين يتشكلون من رعاة للماشية والصيادين والحطابين، شعب مشتت في منطقة شبه صحراوية بشكل رئيس، ولم يستطع شعب السان أو الكواكوا تقديم سوى مقاومة ضعيفة للأوروبيين القادمين، وكان شعب XHOSA المتمركز في منطقة مائية شعباً زراعياً؛ ولذا لعبت الماشية دوراً مهماً في اقتصادهم. وقد واجهوا أولاً المستوطنين الهولنديين عسكرياً عام ١٧٧٠. وعبر العقود التي تلت، أقاموا مع البوير قرب الحدود، معارك تشتمل على الغارات والغارات المضادة واتسمت بمراحل في الحرب المفتوحة.

وقام شعب الكوسا تدريجياً بتحسين دفاعاته في مواجهة الخطر الأوروبي عبر الحصول على أسلحة أوروبية، وفي سياق التدرب على القتال كخيالة، غير أنهم لم

يتحدوا أبداً كما كان شعب الزولو في أوائل القرن التاسع عشر. وكان شعب الكوبا ككل، منتسباً إلى عدد من المجموعات الثقافية، وحتى كانوا نادراً متحدثين سياسياً لفترة طويلة. وكانت وحدتهم الأكثر أهمية المسماة غالباً زعامة تشتمل على قائد أو رئيس يحكم مجموعة من الأقارب، والزبائن التي تربطهم جزئياً روابط النسب والولاء والمصلحة المشتركة، وبالرغم من الضعف السياسي، شكّل شعب XHOSA حدوداً قوية نسبياً في مواجهة الأوروبيين، وفي عام ١٨٤٠ كانت مقاومتهم عاملاً رئيساً أجبر توسع البوير المسمى غالباً Creat trck ليتخذ مساراً آخر إلى الشمال، حيث أقام البوير بسرعة تفوقهم فيما أصبح دولة البرتقالة الحرة.

وبالرغم من قيام الأوروبيين بدفع حدود شعب XHOSA تدريجياً إلى الوراء في سلسلة حروب محققة انتصارات عسكرية عام ١٨٣٤ و ١٨٤٦ – ١٨٤٧ ومجددة عام ١٨٥٠ – ١٨٥٣. وكانت الحرب الأخيرة قاسية بشكل خاص مع استراتيجيات الأرض المحروقة من جهة الإنكليز وثوار XHOSA في المناطق المسيطر عليها من الإنكليز عام ١٨٥٣، ضمت مستعمرة الكاب المنطقة غرب نهر KEI تاركة إلى الشرق منطقة غير موحدة لكن مستقلة عن الحكم الأوروبي. وقد استطاعت ترانسكي الحفاظ على استقلالها الفعلي حتى عام ١٨٩٠.

بالنسبة لشعب XHOSA، لم تكن الكارثة الكبرى في أوائل ١٨٥٠ خسارة الحرب، لكنّ إدخال مرضى الماشية المسمى مرض الرئة إلى جزء من إفريقية غير المعروف سابقاً. ونجا شعب XHOSA من مشكلات المرض التي واجهها الهنود في أمريكا الغربية؛ لأن المرض البيئي عندهم كان مشابهاً تقريباً لأوروبا، ومع أن مرض الرئة كان جديداً وكأي أمراض بشرية جديدة جاء معدياً مع أعلى نسبة من الوفيات، وقد ظهر أولاً في خليج موسيل إلى الشمال عام ١٨٥٤، وبلغ XHOSA على الجانب الآخر من نهر كاي عام ١٨٥٥ بعد الهزيمة العسكرية. وقد أصاب مرض الرئة تقريباً كل الماشية وقتل الغالبية العظمى، وكانت الماشية مهمة جداً لاقتصاد XHOSA حيث

بدأ الناس يموتون من الجوع. وقدر عدد الذين ماتوا بـ ٤٠ ألفاً وفر ٤٠ ألفاً آخرون إلى مستعمرة الكاب بحثاً عن الطعام والعمل.

وقد واجهوا الأزمة، مثل هنود الحوض الكبير والسهول المرتفعة عبر العودة إلى تبني دياناتهم التقليدية، وفي هذه الحالة تلك التي تميل إلى تفسير الشر في العالم من خلال وجود السحرة أو الساحرات الذين لقبوا بالعرافين المحترفين في زمن الإحباط. ودعت ثقافة XHOSA أيضاً إلى التضحية بالماشية في نقاط مهمة من مسار الحياة مثل الولادات والموت والاحتفالات. وتضمنت معتقدات XHOSA الأخرى الأمل ببعض البحث أو تجديد الشباب.

وخلال الأزمة في منتصف ١٨٥٠، اتبع العديد من XHOSA هذه المعتقدات التقليدية واستخلصوا أن وفاة حاشيتهم تلوث بنوع من السحر. ويكون الدواء الطبيعي التضحية، وكانت التضحية ببعض الماشية المتبقية إحدى الطرق لحماية صحة الماشية التي لم تولد. لم تكن هذه المعتقدات مألوفة بعد، لكن رسل أوائل ١٨٥٠ تنبؤوا بمعجزات ألفية من مختلف الأنواع، وقد تأثر أحدهم بأخبار حرب القرم متوقعاً وصول الروس لطرد الإنكليز.

غير أن النبوءة التي شاعت، بدأت عن طريق Mhlakaza، وهو مستشار مهم لأحد زعماء غيليكا الواقعة على جانب منطقة ترانسكي على نهر كاي ونزولاً إلى البحر، وكذلك على حدود مستعمرة الكاب. مكالازا نفسه لم يكن نبياً بل منظماً، وتملك حفيدته نفونكوز الرؤيا والرسالة من الأجداد بقتل ما تبقى من الماشية وإتلاف كل الحبوب وعدم الزراعة العام المقبل. عندها سيعود الأجداد من الممات، ويرمون الأوروبيين في البحر، وستعود الماشية إلى الأرض وستملأ الأهرامات بالحبون بمعجزة. وتنبأت نفونكوز سلسلة من التواريخ لهذه الأحداث بدءاً من آب ١٨٥٦ وحتى أيار ١٨٥٧. قام العديد من الناس بقتل ماشيتهم لكن مع حلول ١٨٥٦

كانت معظم الماشية ميتة من مرضى الرئة، واستمرت الأزمة على ضفتي نهر كاي، وفي نهاية ذلك العام كان ثلثا السكان إما أموات من الجوع أو رحلوا.

إن التشابه مع ديانة رقصة الشبح مذهلة؛ فالأموات يبعثون أحياء مجدداً. يقضى على الأعداء الأوربيين من خلال تحضير طقوس دينية.

وستعود قطعان الماشية والثيران، وتنجب، وهناك اختلافات مذهلة أيضاً. هذه المرة، تدعو النبوءة إلى التضحية وليس القيام فقط بطقوس دينية، كما أن أساس الحضارتين الدينية مختلفة بشكل كبير. كذلك فإن درجة المشاركة تبدو أغلبية صغيرة في أوساط الراقصين السيو بينما يصل المشاركون من شعب XHOSA إلى ٨٠ بالمئة أو أكثر.

## شهود يهوة:

برزت دياة قتل الماشية ورقصة الشيخ في ظروف حرمان قاسية نسبياً استمرت طيلة عقود.. ولم تكن لكل الحركات الألفية هذا النوع من الخلفية. وقد بدأ شهود يهوة في شبه الجزيرة الغربية في أوقات رخاء نسبي، وقد استقطب بنجاح متابعة واسعة من الولايات المتحدة وأوربا، واستمروا في إعطاء تنبؤات دقيقة حول ما سيأتي لقرن بعد تأسيسهم الأصلي. ولم تكن لديهم خبرة حول نزاع التشابك الحضاري في مكانه الأصلي، لكن نظريتهم انتشرت بشكل واسع بين المؤمنين غير الغربيين الذين عايشوا تجربة هذا الصراع خاصة في إفريقية.

أسس شارلز تاز راسل شهود يهوة عام ١٨٧٠ كمجموعة دراسة للإنجيل ذات خلفية مقدمية، في عام ١٨٩٠، توسعت الحركة، وتطورت من خلال مراقبة الإنجيل، ومجتمع كنسي مع فروع في أجزاء عديدة من الولايات المتحدة وبريطانيا، وكان فكرها في السنوات الأولى مرآة دقيقة للنصوص الدينية التي أوضحت من بين أمور أخرى عودة المسيح بشكل غير مرئي إلى الأرض عام ١٨٧٤، وكان هذا التاريخ بداية

من اضطرابات ستقود إلى نهاية العالم عام ١٩١٤ عندما سيعود الميت مجسداً وسيعطى المؤمنون فرصة الهداية قبل الحساب الأخير وبعد زوبعة حملة الهداية، سينضم المهتدون إلى المؤمنين الأحياء ليدخلوا الجنة بينما يسقط غير المؤمنين في عالم النسيان.

وتستند هذه العقيدة بشكل واضح على عناصر من المسيحية البروتستانية السائدة في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر واليوم السابع المقدمين بين الآخرين. وكانت مشاعر العداء من بقية المجتمع الأميركي حاضرة ومستمرة، لكن مثل هذه المشاعر كانت مشتركة في أوساط الطوائف الأخرى بشكل كبير بما في ذلك المهزوزين وغيرهم في أمريكا وفي أماكن أخرى. من الصعب ملاحظة أي شعور حاد من الحرمان النسبي مساوٍ لراقصي الشبح XHOSA. وتبدو الألفية في هذه الحالة قد نشأت خارج علم اللاهوت البروتستانتي في وسط أمريكا الذي انعكس بدوره على الألفية القوية للمسيحية المبكرة.

من جهة أخرى، كان لدى المذهب عناصر لتحويل فكر الناس عن التقاليد الفكرية الأخرى. في جنوب إفريقية، لم يكن أول ناقل للرسالة مراقباً تبشيرياً أو حتى عنصراً عبقرياً من الطائفة، لكنه راديكالي متدين من نيوزلندا اسمه جوزيف بوث الذي أدخل بعض الأدب المراقب في جنوب إفريقية. وكان لتأثير بوث على إليوت كاموانا كنتيجة انتشار العقيدة في معظم إفريقية الوسطى والشرقية خلال القرن القادم.

وكان كاموانا عاملاً مهاجراً من مالاوي لاحقاً وعاد إليها عام ١٩٠٨ في مرحلة بدأ الناس هناك يشعرون بتأثير السيطرة الاستعمارية المباشرة. وقد أدخلت الحكومة الاستعمارية مؤخراً فقط ضريبة الكوخ، وهي شكل من الضريبة التنازلية تهدف لأخذ ضريبة من كل بيت بشكل ضاغط بحيث يصبحون عاجزين عن الدفع من محاصيل مزارعهم، عندها أجبر الرجال على العمل في المزارع الأوروبية التي كانت تنتشر في أنحاء الريف أو الذهاب للعمل في جنوب إفريقية كما فعل كاموانا نفسه.

وكانت نبوءات ألفية طرحت في مالاوي، فقد تنبأ كاهن غير مسيحي بأن الأوروبيين سيختفون في نهاية عام ١٩٠٧ عندما كان كاموانا لا يزال في جنوب إفريقية، وبعد عودته، للألفية القادمة عام ١٩١٤، دفع عدة آلاف إلى الهداية، لكن عندما فشلت نبوءته أيضاً في الحصول، تبع الكاهنة الإفريقية إلى المنفى.

وفي وقت لاحق تحول كاموانا إلى طائفة مسيحية أكثر تطرفاً، لكن الحركة توسعت دون المساعدة المباشرة للمؤسسين الأصليين في الولايات المتحدة الذين تخلوا عنها وأرسلوا مبشريهم إلى إفريقية لنشر مذهب أكثر تطرفاً للمعتقدات المراقبة.

وقد ظلت مالاوي (نايسالاند) موقعاً مهماً لتشتت الأفارقة؛ لأن النايسلانيين انتشروا بشكل واسع كعمال مناجم، وعينوا بعد ذلك كرهبان بسبب ثقافتهم الغربية في الإرساليات. وحصلوا على رواتب أعلى ووظائف أكثر ثباتاً من العمال غير المتخصصين. وأصبحت ديانة المراقبة قوية في الروديسيتين (زامبيا وزيمبابوي) وتورطت في اندلاع الانتفاضة العمالية في مناجم شمال روديسيا التي بدأت عام ١٩١٧ – ١٩١٩، عندما انتشرت، استوعبت مظاهر الأديان الإفريقية، وقد تغير الاسم المشترك من المراقب الانكليزي إلى مراقب كيتاوالا وقنوعاته.

وعندما انتشرت، تضاءل التأكيد على التوقع الألفي، وعوضاً عن الاستعداد الديني لرقصة الشبح أو التضحية بقتل الماشية XHOSA تحولت فروع من الحركة إلى تهيج نشط لمناهضة الأوروبي وساعدت على تنظيم اضطرابات مناهضة للأوروبيين في شمال روديسيا في منتصف العشرينيات، تبعها تحرك عنيف مماثل في الكونغو البلجيكية عام ١٩٣١ و ١٩٣٥ .

بعد الحرب العالمية الثانية، دخل كيتاوالا شمالاً حتى الكونغو الفرنسية باسمها الجديد كينشاسا، وحصلت اختراقات أخرى في أوغندا. في ذلك الوقت، كانت الحركة قد سافرت أكثر من ألفي ميل بعيداً عن نقطة دخول إلى إفريقية في الولايات المتحدة وأكثر من ألف ميل من انتشارها الثاني من نايسلاند منذ نصف

قرن. ودخل المخترقون من الحركة لاحقاً في الصراعات من أجل الاستقلال الإفريقي، ففي عام ١٩٦١ نشرت بعض الصحف الأمريكية تقريراً أن قبائل كيكيوات الشرسة نصبت كميناً لفرقة إيرلندية تابعة لبعثة الأمم المتحدة المرسلة لمنع انفصال كاتنغا عن الكونغو البلجيجية السابقة.

لا يعني هذا القول أن حركة المراقبة الإفريقية خسرت انطلاقتها الألفية كلياً، فلا تزال تتنبأ بنوع من الألفية حول طرد الأوروبيين من إفريقية، لكنّ التاريخ لم يكن دقيقاً وتضاءل التوقع. وحافظت الحركة على فكرة بأن إطاعة الحكم الاستعماري هو إطاعة للشيطان، مع أن شهود يهوة الأكثر تطرفاً ساندوا أحياناً العصيان المسيحي لبعض متطلبات الحكومات العلمانية في الدول الغربية.

## شعائر وطقوس نقل المواد في ميلانيزيا Melanesia

جذبت مجموعة أخرى من الحركات الألفية من جنوب غرب المحيط الهادي الانتباه خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، وسميت غالباً مذاهب الشحن التي تعني البضائع المستوردة من كل الأنواع. وتتضمن توقعات هذه الحركات الألفية، الأمل، والإيمان بأن بضائع الأوروبيين الثمينة ستصل عبر البحر أو الجو؛ لذا فإن هوية المانحين تغيرت من حركة إلى أخرى.

كانت طقوس التسفير الأكثر شيوعاً في ميلانيزيا وهو الاسم التقليدي لواحدة من ثلاث مجموعات ثقافية ولغوية رئيسة تأسست في جزر الهادي، وقد اشتملت على جزيرة غينيا الجديدة الكبيرة وغيرها إلى الشرق The New Hebrides، وقد نشأ هذا الاسم أصلاً من واقع أن لون بشرة السكان كان داكناً أكثر من بقية سكان جزر الهادي مع مظهر جسدي مشابه للسكان الأصليين الاستراليين، وكان جيرانهم البولونيزيون منتشرين على مساحة كبيرة من الأرض تمتد من هاواي إلى الشمال حتى نيوزلندة الجديدة في الجنوب. أما المجموعة الثالثة Micronesia إلى الشمال فهي تشتمل على جزر مبعثرة شمال خط الاستواء بين هاواي والفلبين.

وقد حصل الاختراق الأوروبي Melanena في مرحلة متأخرة مقارنة مع جزر الهادي الأخرى. ولم يقم الأوروبيون بزيارة غينيا الجديدة الساحلية إلا نادراً قبل ١٨٥٠، وجاءت عمليات الضم فقط عام ١٨٨٠ و ١٨٩٠. وحتى ذلك الحين، كان الأوروبيون بطيئين في استكشاف المناطق الداخلية للجزر الكبيرة، وقد وصلوا إلى معظم المناطق الخارجية المرتفعة لغينيا الجديدة فقط بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت غيينا الجديدة وبقية جنوب غرب Melanesia مبعثرة سكانياً، بمعدل عشرة أشخاص في الميل المربع وهو مقياس عام. وعندما وصل الأوروبيون قاموا بإنشاء إدارة استعمارية لأسباب استراتيجية وبشكل رئيس لمنع الأوروبيين الآخرين من القيام بالمثل، أكثر منه، لأجل المنافع الاقتصادية المتوقعة. واستخدموا الجزر فقط لمزارع جوز الهند المبعثرة، وللطبقة العاملة الموسمية المستخدمة في أماكن أخرى هنا وهناك، لاستخراج الموارد المعدنية. وقد حكم الإداريون القلائل السكان الأصليين بشكل رئيس عبر أتباع محليين عرفوا بالزعماء، وكانت قوات الجيش المطلوبة والشرطة معظمها مأخوذة محلياً، وكانت بإمرة ضباط أوروبيين، بمعنى آخر، اشتمل الوجود الأوروبي على عدد من المسؤولين الزراعيين وبعض المبشرين، وكان النفوذ الأوروبي ضئيلاً حتى بعد الضم.

كان تأثير الوجود الأوروبي على الثقافة المحلية متناقضاً أيضاً. في بعض الحالات، كان التأثير الأوروبي محدوداً جداً، وحصل قليل من سكان جزر المحيط الهادي على الثقافة الأوروبية من خلال التعليم، ووصل عدد أقل إلى درجة أعلى من المرحلة الابتدائية. وبالفعل استطاع نفر قليل من ممارسة القانون والطب والعمل لدى الإدارة في مراكز عالية. مع ذلك أدى غياب الشباب في فترات العمل المتنقل، وخسارة الأراضي الزراعية، والأجور الضئيلة في المزارع إلى تشتت العديد من التقاليد الثقافية القديمة.

وكان إدخال الأمراض الغريبة مهماً أيضاً في المناطق الساحلية للبلاد والتي لم تصل بعد إلى المرتفعات المعزولة ووصلت بعد نصف قرن ونيف إلى مناطق أخرى من

المحيط الهادي مثل: نيوزلندا وهاواي. وكان Madir متأخراً عما كان في الحوض الكبير في شمال أمريكا والذي حصل في العقود الأولى من القرن التاسع عشر.

كانت مشاعر الحرمان الشديد سائدة. وكانت البضائع الغريبة ظاهرة في أيدي الأوروبيين ولم تكن متوفرة لدى أهالي Melansia، وقد تأثرت هذه المشاعر أيضاً بتعاليم المبشرين المسيحيين خاصة تلك التي تتحدث عن ظروفهم ولا تتعارض مع معتقداتهم السابقة. وكان العهد القديم مؤثراً، وكان لعملية أسر اليهود وهروبهم من مصر تأثير خاص كما حصل للمحرومين في أي مكان آخر.

وقد أعطت هذه المعاني الموجودة أيضاً الأمل بالمستقبل، وكانت الآمال الألفية موجودة في العديد من الأديان القديمة في المنطقة. وقد وجدت الحركات الألفية بتنوع كبير في أنحاء Melanisia ويمكن اعتبار ساحل غينيا الجديدة مثالاً إقليمياً. وفي أوائل ١٨٥٧، سجل المبشرون في المنطقة الغربية المحتلة من الهولنديين في غينيا الجديدة نبوءة جديدة تعتمد على أسطورة تقليدية حول شبيه للمسيح بصفة MANSERN، وكانت روايته حول معجزة رجل عجوز، وزوجته، وابنه الذين سافروا عبر كل المناطق الساحلية وقاموا بمعجزات متنوعة قبل اختفائهم. وروت الأسطورة عودتهم المتوقعة التي ستحصل في عصر ذهبي، حيث يعود العجزة إلى الشباب ويبعث الأموات، ويعود التناغم مع الطبيعة وستزول مطالبة الأوروبيين بالضرائب وبالعمالة الإجبارية.

وقد أثار رسول لاحق في غرب غينيا الجديدة أسطورة MANSERN لكن دون نبوءات ألفية دقيقة. وأخذت نبوءة طارئة مظاهر مناهضة الأوربيين، وقامت الإدارة باعتقال الرسول. وقد حافظ الرسول الذي سجن عام ١٩١١ على بعض أتباعه بعد إطلاق سراحه عام ١٩١٦. وظهر رسل آخرون في سنوات الحروب الداخلية مع نبوءات طارئة بأن اليوم سيأتي عندما تقوم بواخر أوروبية ضخمة بإحضار بضائع، وتقول نبوءة أخرى: إن أيَّ معامل تصنيع البضائع ستظهر من الأرض.

openkand.com

وقد أحدث الكساد الكبير الذي تلا اندلاع الحرب في أوروبا واحتلال الألمان لهولندا عام ١٩٤٠ توتراً سياسياً ووضعاً اقتصادياً صعباً في الجزء الهولندي من غينيا الجديدة. وقد برز رسل مع ترددات كبيرة، واتخذت نبوءاتهم ملامح مناهضة للأوروبيين أكثر ثورية. وكانت هذه الحركات نشطة بنوع خاص على الساحل الشمالي وعلى شواطئ جزر مثل BIAK، لذا توزعت هذه الحركات إلى مجموعات صغيرة غير مترابطة تنتظر كلها قدوم البضائع. وتضمنت طقوسهم الدينية غالباً استخدام الألقاب الأوروبية مثل: جنرال، وطبيب، وعامل راديو.

وعندما وصلت الحرب إلى Melanenia عام ١٩٤٢، كان أثرها كبيراً، وشكلت هذه المنطقة التي أهملها الغزاة لسنوات قليلة ساحة قتال مهمة بين أقوى الدول الصناعية. ولم تمثل هذه المنطقة اهتماماً جوهرياً بالنسبة لليابانيين، لكن عند احتلالهم للفلبين وأندونيسيا أصبحت الممر نحو أستراليا ونيوزيلاندا، كما تقع بورما في الطريق إلى الهند بعد الاحتلال السهل لبقية جنوب شرق آسيا. وكانت بورما وجزر Solomon حيث استطاع الحلفاء وقف التقدم الياباني بشكل فاعل.

وبالمصادفة أدى ذلك إلى استعراض ضخم لمختلف المنتجات العسكرية المتطورة المتوفرة في العالم.

وبالنسبة لشعب غينيا الجديدة الساحلية، جرى الترحيب بالغزاة أولاً على أنهم أعداء للهولنديين الظالمين، لكن هذه الموافقة زالت تدريجياً بعدما فاقت مطالب اليابانيين مطالب الهولنديين. وقد دخلت مجموعات متفرقة من PAPVAN القتال بعضها ضد اليابانيين، وبعضها الآخر ضد الأوروبيين؛ وقاتل آخرون الطرفين في مراحل متفرقة.

وفي عام ١٩٤٤ أدى الاحتلال الأميركي لـ BIAK ومنطقة الساحل الشمالي إلى تحول كبير في مستوى النشاط العسكري. فقد كانت القوة اليابانية في المنطقة أقل من عشرة آلاف رجل، وقد جرى تجريدها من السلاح بسرعة. وجعل الأميركيون

obeikandl.com

Holandia قاعدة للتحرك شمالاً إلى الفلبين وتمركز ٤٠٠ ألف رجل من القوات الأمريكية هناك في أوائل ١٩٤٤.

وخلال السنوات الأخيرة للحرب، قامت قوة من الحلفاء قوامها أكثر من مليون رجل مزودة بالسفن وطائرات النقل (إضافة إلى المؤلف) بالتحرك حتى جزيرة Manus. وكان عدد السكان المحليين حوالي ٢٥ ألف نسمة. كان هذا الاستعراض لحجم البضائع المتوفرة في العالم الخارجي مؤشراً لأي كان، وزاد بالتأكيد في التوقعات الألفية مع أن الزعماء حددوها بشكل مختلف.

وقد بنى بعضهم المخازن لاستقبال البضائع المتوقعة وقاموا بطقوس دينية أخرى، لكن التوقعات والاستعدادات تحولت مع الوقت من خيالية إلى واقعية. فقبل الحرب على سبيل المثال، جرى التنبؤ بعودة MANSERN والاستعداد له بطقوس دينية. وخلال القتال، اعتاد PAPVANS استخدام القوة وشاهدوا استخدامها بشكل واسع. ولا زال العديد يتوقع الآمال الألفية وهم مستعدون الآن لدعمها بتحركات سياسية متنوعة تدعم مصالحهم.

كان لدى سكان MELANESIA برنامج براغماتي للآمال الألفية، وكانت لهم تجربة قوية مع الشحن عن طريق الجند الأجانب. ففي جزر SOLOMOW على سبيل المثال حيث قاتل الأميركيون والأستراليون ضد اليابانيين لأول مرة برز تنظيم سياسي في أواخر ١٩٤٥ يدعى نظام الكتلة.

ولا توجد علاقة لهذا النظام بنظام ماركسيان MARXIAN كما ادعى المعارضون في ذلك الوقت. وكان الجانب السياسي للحركة، العمل على إقامة حكومة مؤسسات فيها جذور أوروبية لبعض الوقت. استفادت زعامة نظام الكتلة من انشغال الأستراليين في مكان آخر، وأصبحت الحكومة الفعلية للجزر.

تمسكت الحركة بتوقعاتها إلى جانب إنجازاتها بأن الأميركيين الذين مروا خلال الحرب سوف يعودون مع بضائع؛ لذا كانت هذه التوقعات في حينها تفسيراً جانبياً.

في البدء، وصفت الحكومة الأسترالية الاستعمارية الحركة بالانقلابية، وأوقفت معظم قادتها البارزين لكنها اعترفت بسرعة أن القمع لن يجدي نفعاً. وفي بداية ١٩٥٠، أقامت استراليا حكومة محلية منتخبة كانت أكثر فاعلية في التصدي لمطالب نظام Marching Rule بسلطة مستقلة، وبالفعل كان ذلك التحرك رئيساً نحو الاستقلال في جزر Solomon والذي أعلن عام ١٩٧٨.

## نجاح أو فشل

اعترض معلّقون سابقون على الدور المميز والتاريخي لأكثر الحركات الألفية تطرفاً. وكان لبعضٍ مظاهرُ عملية وخيالية أيضاً، لكنها فشلت جميعها بمعنى أن الألفية المتوقعة لم تحدث مطلقاً. وقد وصفهم تخمين شائع كنوع من المرض الاجتماعي وعدم ثقة يؤدي إلى المجهول. وتضع مثل هذه التقديرات الحركات الألفية إلى جانب المذاهب الأمريكية العصرية مثل الحركة الداوودية في واكو تكساس عام ١٩٩٠، أو المذهب المسؤول عن مجازر جونستاون الجماعية والانتحار عام ١٩٨٠.

وتوضح تقديرات أخرى المظهر الديني للحركات الألفية، والأمل في تدخل إلهي لديه الكثير من المشترك مع الدين أكثر منه مع السياسات العلمانية، ويساعد العديد من الأديان الأفراد على تخطي مشاعر العجز، وقد أعطت العديد من الحركات (رقصة الشبح وشهود يهوه) الطمأنينة لأتباعها حتى بعد فشل ظهور الألفية.

ومهما كانت التقديرات السابقة، فإن هذه الحركات مهمة لفهم التحول في المجتمعات الإنسانية. وبالرغم من أنها كانت نادرة النجاح في الوصول إلى أهداف محددة، فهي تبرز بأنها الردود البشرية على المشكلات الإنسانية، وإذا كانت فرضية، فهي مع ذلك أمثلة للردود على التنوع - ضمن هذا السياق - فهي تنتمي في مكان ما إلى امتداد يمر من الأعمال الإجرامية من جهة إلى الثورات السياسية الرائعة والعقائدية مثل الثورة الأمريكية من جهة أخرى.

## دروب إلى استقلال قابل للحياة: غانا

كانت عملية بناء أمة في غانا مختلفة كثيراً عن أندونيسية وربما أكثر نجاحاً. فغانا ليست مثل أندونيسيا في خصائص عديدة، وتقع الدولتان على طرفين متقابلين من الكوكب، ولديهما القليل من التشابه في ثقافتهما. بالرغم من أن كلاهما استوائية، وكل الأرض النائية من الساحل الذهبي، أصبحت غانا منطقة من الزراعة المتناوبة مع مناطق أرز مروي قادر على دعم الكثافة السكانية مادياً. وتعتبر أراضي أندونيسيا متنوعة وموزعة على منطقة شاسعة مع عدد سكان بلغ ٨٥ مليون نسمة مقابل ٦ مليون في غانا عند الاستقلال. وبالرغم من كل هذه الاختلافات فإن تجربتهما التاريخية تتضمن الكثير من المشترك.

وقد تلاقت المنطقتان مع الأوروبيين تحت ستار التجارة مع بعض الامبراطوريات. وقد بدأ الحصن البرتغالي في المينا على الساحل الذهبي عام ١٤٨١ وزار كولومبس هذه المنطقة قبل ذهابه لاكتشاف أمريكا. وقد أنشئت قاعدة باتافيا في جاوا عام ١٦١٩ بعد ذلك بنصف قرن، غير أن الحركة من تجارة المناطق إلى أراضي الإمبراطورية كان له التوقيت نفسه في الساحل الذهبي وجزر الأنديز الهولندية. وبمعزل عن سيطرة الهولنديين المبكرة على جاوا فإن غزوهم لشمال سومطرة حصل مع استيلاء البريطانيين على أسنتة والأراضي النائية عام ١٨٩٠.

وفي غانا وجزر الأنديز الهولندية كانت حركات الاحتجاج المناهضة للاستعمار حتى قبل الغزو مكتملة وكسبت الدولتان الاستقلال الرسمي عام ١٩٥٠.

### الإقليم والشعب:

قيل مراراً إن الحدود الإفريقية مصطنعة، وقد رسمت من قبل الاستعمار خلال الزحف نحو إفريقية. إن ذلك صحيح جزئياً، لكن الحدود وفق اتفاقيات بين الأوروبيين وظلت نفسها حتى يومنا هذا. لهذا السبب، فإن هناك حدوداً أخرى

اصطناعية، وقد وُضعت الحدود أولاً ثم نما الإحساس بالهوية الوطنية داخل هذه الحدود، ويعتبر ذلك صحيحاً بالنسبة لأندونيسيا كما كان بالنسبة لغانا وأمريكا.

تشكلت الأراضي التي أصبحت غانات من أربع أنواع من الكيانات ما قبل الاستعمار مرتبة على شكل طبق من الحلوى مع طبقات متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب وعلى طول خليج غينيا. وعندما تقدم الإنكليز من الشاطئ إلى الأرض النائية، قاموا بضم جزء من كل كيان جديد من الشاطئ حتى الأراضي النائية قسماً سياسياً من الساحل الذهبي، وقاموا بالتعامل مع كل منها على حدة بشكل مختلف.

وكانت أول هذه المناطق منطقة الدول الصغيرة جنوب أسنتة حيث كان الوجود الأوروبي محدوداً لمدة طويلة في الحصون التجارية، وكانت السيطرة على هذه الحصون هزيلة. وكانت معظم الشركات التجارية الأوروبية تدفع نوعاً من الإيجار أو الدعم للحكام الأفارقة المقربين. وجاءت أول حالة ضم أراض واضحة عام ١٨٧٤ عندما عمدت بريطانيا إلى ضم حزام الدول التجارية على طول الساحل معطية لمستعمرة الساحل الذهبي أول وجود رسمي.

ويعد استخدام عبارة دولة في هذا السياق مشكلة للتاريخ الإفريقي. وقد استخدم الحكام الاستعماريون والدخلاء عبارة قبيلة أحياناً، لكن هذا الاستخدام كان حقيراً ودون أيِّ معنى دقيق بأي حال. وتحتاج الدولة من جهة ثانية إلى حكومة أكثر تنظيماً من التي وجدت في أي مكان قبل بداية العصر الصناعي، ويمكن أن تكون عبارة مملكة أكثر دقة، لكن كون هذه الكيانات صغيرة فقد سميت دولاً صغيرة. وقد اختلف عدد هذه الوحدات وفق التقديرات السياسية للوحدات المستقلة. وربما كانت هناك ٤٠ وحدة سياسية في القرن السادس عشر مع بعض الترابط مع الوقت، لكن العدد انخفض إلى عشرين في القرن التاسع عشر، وكان لدى هؤلاء قاسم ثقافي مشترك، مع أن هناك انقساماً لغوياً كبيراً يفصل ثقافة منطقة AKAN الواسعة إلى الغرب والوسط عن مناطق ثقافة Adangne, GA في أكرا والمناطق النائية شرقاً حتى نهر فولتا.

وكانت لهذه الممالك تجارة نشطة لفترة طويلة قبل وصول الأوروبيين من البحر. وقد قايض سكان الساحل الملح والسمك من المحيط مقابل الأقمشة ومنتجات أخرى من الداخل. ومنذ عام ١٤٨٠، زادت عملية الاتصال مع أوروبا عن طريق البحر حجم التجارة بين الشمال والجنوب لكنها استمرت كلياً بأيدي إفريقية. وبعكس الهولنديين في باتافيا مارس الأوروبيون سيطرة سياسية محدودة على الأراضي النائية.. وكانوا يسيطرون فقط على الحصون التجارية وعدد من المراكز التجارية غير المحصنة. ولم تكن هذه الحصون للحماية بشكل رئيس من الأفارقة؛ بل لدرء خطر الأوروبيين الآخرين التي كانت غاراتهم تشكل خطراً فعلياً كون جزء كبير من التجارة من الذهب.

في القرن الثامن عشر، بنى الأوروبيون ٢٥ حصناً حجرياً على طول الساحل الذهبي بمعدل حصن كل عشرة أميال دون حساب عدد المواقع الأخرى غير المحصنة أو المحصنة بشكل خفيف، ويبدو العدد كبيراً، لكن كل قوة أوروبية تريد تأمين وصول أمن قدر الإمكان إلى المعابر التي تقود نحو الداخل. وكان البرتغاليون أول من وصل، لكنهم تخلوا بعد مدة من الوقت وحلت مكانهم مراكز متناثرة يديرها هولنديون وإنكليز ودانماركيون وآخرون.

بدأت المنطقة التي تمثل الطبقة الثانية وتبلغ بين ٣٠ و ٥٠ ميلاً بحرياً، وكانت منطقة ممالك واسعة واقعة جنوباً في منطقة الغابات وجزئياً أبعد منها في سفانا الجنوبية، قبل القرن السابع عشر كانت هذه الممالك صغيرة مثل الممالك السياحية. وفي أوائل القرن التاسع عشر، جعل التماسك السياسي أسنتة أكبر المجموعة، لكن الآخرين Denkyise في الغرب وأكوامو في الشرق قاموا باستيعاب جيرانهم الأصغر قبل أن يستوعبوا بدورهم من أسنتة. وكانت أسنتة مماثلة للممالك الساحلية من حيث حضارة AKAN، غير أنه في أوائل القرن التاسع عشر توسعت سلطة أسنتة أبعد من منطقة حضارة AKAN شرقاً عبر نهر فولتا وشمالاً حتى وصلت في بعض المناطق أبعد من الحدود الحالية لغانا.



obeikandi.com

شكلت المنطقة شمال أسنتة الطبقة الثالثة الأكثر تعقيداً وتنوعاً. فقد تبدلت الزراعة الطبيعية حتى في شمال أسنتة من غابة استوائية في سافانا إلى أرض حرشة مفتوحة. وفي نيجيريا المجاورة، سميت هذه المنطقة أحياناً (الحزام الوسط) بين الغابة الممطرة في الجنوب وسافانا كلها إلى الشمال. غير أنه وضع غانا، كانت المنطقة المماثلة لشمال نيجيريا تمتد بشكل رئيس عبر حدود بوركينا فاسو. وعلى غرار الأحزمة النيجيرية الوسطى، اتجه شمال الغيني نحو الميل أكثر إلى التبعثر السكاني والتشرذم السياسي والتنوع العرقي من الدول المجاورة إلى الشمال والجنوب. ومن المجتمعات الفاقدة الجنسية إلى نسبة التي بقيت خلال القرن العشرين Tallensi وقد مثلت نموذجاً لذلك. وقد وصفت بعديمة الجنسية لعدم وجود نظام سياسي مركزي وليس بسبب الافتقار للسلطة عموماً، وعوضاً عن ذلك كانت المؤسسات السياحية معتمدة على صلة القربى مع ميزان متشابك من الأنساب والمسؤوليات المتناوبة لإثارة النزاعات بدل حل هذه النزاعات عبر شخصية قضائية مركزية. وامتد نسيج العلاقات بين الأنساب من قرية واحدة ليشمل مجموعة قرى معزولة، بحيث لم تكن هناك حدود واضحة دائماً لمدى هذه العلاقات.

وأخيراً، إلى الشمال من الحزام الأوسط وجدت منطقة من الممالك الأكثر أهمية سافانا التي تمتد من الأطلسي إلى بحيرة تشاد وما وراءها، وكان السكان إلى الشمال من غانا بأغلبيتهم من حضارة Mossi الموجودين حالياً في بوركينا فاسو؛ ولذا امتد نفوذهم إلى الجنوب من الحدود الحالية.

## التوحيد السياسي في الداخل:

لم تكن أيٌّ من هذه المجتمعات الساحلية والحرشية أو سافانا ثابتة. وجاء التوحيد السياسي الذي دام طيلة قرون نتيجة تطوير حرف التجارة. وكانت حقول الذهب في MKAN إلى الجنوب مصدراً لمعدن مالي مصدرة بشكل واسع إلى شمال إفريقية وأوربا حتى قبل نزول البحرية الأوروبية إلى الشاطئ. وقد بسط الشعب

المسمى Jaula (التي تعني تاجر) سيطرتهم السياسية لعدة قرون في المنطقة شمال وغرب أشنة. وقاموا بإدخال الإسلام إلى المنطقة، واستخدم آخرون يمتطون الخيول طريق Jaule للتقدم إلى داخل غانا الحالية. حيث أنشؤوا مملكة لونجا Lonja، وقام فرسان آخرون من غير المسلمين هذه المرة بدخول المنطقة من الشمال والشمال الشرقي، وأسسوا ممالك صغيرة أخرى مرتبطة بممالك Mossi التي تسمى حالياً بوركينا فاسو.

غير أن التحولات الأكثر أهمية لم تكن سياسية. فقد جلبت التجارة المعرفة من المجتمعات الأخرى وكذلك أساليب أخرى لصنع الأشياء، جلبت الإسلام مع عقيدته. ولم يقم علماء المسلمين بنشر دينهم فقط بل كانوا مفيدين لدى الحكام غير المسلمين وعملوا كتّاباً وموظفين، ومع حلول القرن الثامن عشر، ظهر التجار المسلمون على الساحل أحياناً وكسب الإسلام أتباعاً إلى الجنوب في أسنتة.

لم تكن عملية التوحيد السياسي فقط مرحلة من الغزو والإحاطة، كان بروز أسنتة المثال الأهم في عملية بناء أمة ما قبل الاستعمار. بدأت أسنتة واحدة من الدول الصغرى العديدة في AKAN من منطقة الغابة وسافانا. وقد اتجهت هذه الممالك إلى اختيار زعماء شبه منتخبين مرتكزين على توازن دستوري بين سلسلة من الأنساب تم التعبير عنها عبر توزيع السلطة السياسية بين الزعيم ومجلس من كبار القوم، الملكة الأم ومجموعة العامة. كان هناك عبيد أيضاً لكنهم لم يحصلوا على أيَّة سلطة سياسية مهمة أكثر مما أوكل إليهم أسيادهم. وكان موقع الملك دينياً جزئياً طالما أنه مكلف بالوساطة بين الأحياء وأجدادهم الأموات الذين تتمثل أرواحهم رمزياً بالأداة الخشبية المنقوشة دون ظهر التي يجلس عليها الملك في المناسبات. وكان يُصنَع كرسي جديد Stool لكل حاكم، وكانت مقاعد الملوك السابقين تحفظ في مخزن الأدوات المساوي للمتحف الملكي الذي يحفظ فيه تاج كل ملك سابق. وكانت السلسلة الواضحة للشرعية النسب واتحاد الحاضر مع المستقبل من خلال الأجداد الذين كانوا الممثلين البارزين لكل نسب ولكل مملكة في عالم الأرواح.



obeikandi.com

كان من الصعب جمع هذه الممالك الصغيرة معاً، طالما يمثل كل ملك أجداد مجموعة Komasi ومستشاروه رمزاً لاتحاد واسع. كان ذلك الرمز عبارة عن أداة ذهبية سقطت نظرياً من الجنة وتمثل أجداد كل الشعوب في مملكة جديدة تشكلت من خلال التحالف العسكري. كانت أسنتة هي هذه الدولة، وأصبح ملك كوماسي Asentehena أو ملك الاتحاد برمّته كما كان. غير أن Sentehena لم يجلس على الكرسي الذهبي وظهر جالساً على كرسيه.

في القرن الثامن عشر، هزمت أسنتة Denkyire وأصبحت الدولة الأكثر أهمية بوحدتها في حزام الغاجة مع مجلس عام وجيش عام ونظام قضائي، وتركت كل من الممالك المجتمعة توسع أسنتة في منتصف القرن التاسع عشر، لكن المناطق المحتلة عوملت بطرق مختلفة. وقام بعض أتباع حضارة AKAN بالانضمام كأجزاء مكملة لمملكة أسنتة. وتم ضم عدة دول ساحلية صغيرة من حضارة AKAN ظاهرياً لكنها لم تكن مكملة لدولة أسنتة، كانت هذه الدولة متروكة للقيام بتسيير أمورها ولم يطلب منها المساهمة في جيوش أسنتة التي تقاتل. بمعنى آخر كانت محميات. وغزت أسنتة أيضاً عدة ممالك إلى الشمال ما وراء منطقة حضارة AKAN لكن عاملتها بشكل مختلف، فقد أجبرتها على الاعتراف بتبعيتها وبدفع الجزية، لكن خلاف ذلك سمحت لها بإدارة شؤونها الداخلية. واشتملت هذه المناطق الشمالية التابعة على ممالك كبيرة مثل Gonja و Dagonba وقد أسست أسنتة خلال قرن ونصف من التوسع بنية إدارية جديدة تضمنت مراكز معينة خاضعة لـ Asentehen لكن كان لديها سلطة من الممالك التابعة. وكان النظام السياسي على غرار النظم الأوروبية السائدة في ذلك الوقت لكن بعض السلطات رأت فيه بداية للبيروقراطية.

## التوحيد السياسي على الساحل

في أوائل القرن التاسع عشر، حصل نموذج مشابه من التوحيد السياسي في أوساط الدول الصغيرة الساحلية بشكل رئيس رداً على خط توسع أسنتة، ولجأت هذه



obeikandi.com

الدولة إلى الحصون لطلب المساعدة، مع أن هذه الحصون الساحلية ليس لها قوة كافية ولم تكن نِدّاً لجيرانها إبان ازدهار تجارة العبيد. بالرغم من ذلك كان قادتها متورطين في الشؤون السياسية للمنطقة. وبعد إلغاء تجارة الرقيق عند الإنكليز عام ١٨٠٩، لم يعد هناك مبرر للحفاظ على النقاط الساحلية، لكن مع ذلك استمروا متورطين في النزاعات المحلية. بين ١٨٢٤ و١٨٢٦، دخل الإنكليز تحالفاً معادياً لأسنتة مع الدول الساحلية وقتل الحاكم البريطاني خلال المعركة ضد قوات أسنتة.

كانت مبادرة هذا التحالف إفريقية، لكن مجموعة من الحكام الإنكليز أذعنوا ظاهرياً على حماية أمن التجارة. وفي عام ١٨٣٠، لجأ حاكم بريطاني إلى إثارة الفتنة في أوساط شعوب Fiaute حول قلعة الكاب الساحلية المركز الرئيس البريطاني، ثم بدءاً من عام ١٨٤٤، أعطى الصفة القانونية لهذا النفوذ من خلال توقيع سلسلة من المعاهدات سميت اتفاقيات. وقدم الغطاء القانوني لعلاقة كانت تتطور بشكل غير رسمي سُميت أحياناً: حماية قضائية. حصل المسؤولون البريطانيون على سلطة لمحاكمة بعض الحالات، تورط فيها حكام أو أتباع في الدول الصغيرة المختلفة، لكن تم الحكم في هذه القضايا وفق القانون الإفريقي وليس الإنكليزي، انقلاباً على القانون في مناطق خارج سلطتهم والذي طالب به الأوروبيون مراراً في الإمبراطورية العثمانية أو معاهدة المراكز مع الصين.

في عام ١٨٥٠، اشترى الانكليز الحصون الدانمركية لكن بدؤوا في نهاية ١٨٦٠ بالتخطيط لإخلائها مع تزايد خطر سلطة أسنتة الذي كان قائماً. وفي ظل حالة الشك هذه، جاءت مبادرة للتوحد السياسي من الأفارقة المتغربين الذين بدؤوا فعلاً يظهرون قدرات متنوعة حول الحصون. وقد شغل متغرب إفريقي منصب حاكم عام ١٨٤٠ وكان آخرون في مراكز عليا في الإدارة وكان الدكتور MORKN.B.A.J أحد قادة التوحيد، وقد نشأ في الشرق حيث دولة نيجيريا الحالية وقد قبض عليه في البحر من قبل الإنكليز ثم أعيد اعتقاله وتعلم في بريطانيا وكان عنصراً نظامياً في جهاز الخدمات الطبية للجيش البريطاني المتمركز على الساحل الذهبي.

كان المسؤولون الإنكليز في الحصون محايدين في البداية. وظهرت في إقامة إدارة أولية. غير أن تبدل السياسة البريطانية عام ١٨٧٠ أدى إلى قرار الإنكليز الحفاظ على حصونهم وبدؤوا مفاوضات لشراء حصون الهولنديين أيضاً. وفي عام ١٨٧٣ غزت أسنتة مجدداً الممالك الساحلية واحتلت معظم المناطق نزولاً حتى الحصون. وردّ الانكليز بهجوم صاعق على أسنتة التي تقدمت نحو Komesis وأحرقت العاصمة ثم تراجعت. تحركت بريطانية لحماية مركزها المستقبلي. بضم أحادي لكل الممالك الساحلية وللأراضي النائية للحصون الساحلية وجنوب أسنتة مؤسسة مستعمرة الساحل الذهبي. وكانت هذه أولى مطالبة واضحة وحاسمة للسيطرة الأوروبية خارج الحصون. وتحول التوحيد السياسي الذي حصل بناء على مبادرة إفريقية إلى مبادرة للأوروبيين.

## ضم وتنافس وإقامة حدود:

من خلال النظرة التقليدية للجغرافيا السياسية الإفريقية، رسم الأوروبيون حدودهم الاستعمارية متجاهلين الواقع الإفريقي، وكان هذا هو الحال أحياناً. غير أن الإنكليز في الساحل الذهبي قاموا بضم كل الممالك الإفريقية كما فعلت أسنتة في الماضي، وفي عام ١٨٩٥ أضاف الإنكليز أسنتة أيضاً. وإلى الشمال من أسنتة، كانت الخصومات الأوروبية أكثر أهمية في مكان تحديد الحدود. كان الفرنسيون يتقدمون شمالاً من ساحل العاج إلى الغرب، وكان الألمان يتقدمون من توغو إلى الشرق؛ ونتيجة لذلك، جرى ترسيم الحدود الجنوبية للساحل الذهبي باتفاق بين الانكليز والسلطات الإفريقية بشكل عفوي، وتم ترسيم الحدود الشمالية باتفاق بين البريطانيين والأوروبيين الآخرين. وقد علم الأفارقة بالأمر بعد حصوله. وبالرغم من تدخل الدبلوماسية الأوروبية، كان نصف سكان غانا من حضارات AKAN يتكلمون لغات متشابهة، لكن الممالك الأخرى التي تتحدث لغة AKAN في ساحل العاج تحاشت هيمنة أسنتة؛ لذا فقد بقي ربع شعوب AKAN خارج غانا الحالية. من جهة أخرى كانت شعوب BA و Adangue في منطقة أكرا ضمن غانا كلياً.

ولم يكن شعب EWE على الحدود الشرقية إلى الشمال من أكرا كياناً سياسياً، مع أن لديه روابط ثقافية قوية، وساند دائماً الدعوة لتشكيل دولة عصرية واحدة، وكان شعب EWE منقسماً بين الساحل الذهبي وتوغو الألمانية. وفي عام ١٩١٩ انقسمت توغو بين الانتداب الفرنسي والبريطاني تحت رعاية عصبة الأمم، وأصبحت أرض توغو البريطانية جزءاً من غانا، واليوم يعيش ثلث شعب EWE في غانا مع أن الثلث الآخر أصبح المجموعة العرقية المسيطرة في توغو المستقلة بعد الانتداب الفرنسي.

إلى الشمال من أسنتة انتهت معظم الممالك وأصبحت Dagonbe, Goyia جزءاً من غانا غير أن موسي Mempusi, Momi في الشمال الأقصى شكلوا جزءاً من مجموعات ثقافية متمركزة في بوركينا فاسو حالياً.

وبالتالي فإن معظم الغانيين ينتمون إلى حضارة AKAN، وكان لدى أجدادهم الحاليين قواسم مشتركة ثقافياً أكثر مما للأجداد الفرنسيين عندما ضموا إلى الملكية الفرنسية، كانت أسنتة بشكل واضح أمة مع تقاليد ووحدة تاريخية، وظلت هذه التقاليد مظهراً للحياة السياسية الغانية. لم تكن سيطرة حضارة AKAN في غانا مختلفة كثيراً عن جاوا في أندونيسيا مع أن العلاقات السياسية الناتجة بين AKAN والباقي كانت أقل خطورة مما بين جاوا والجزر المحيطة.

## السياسة البريطانية والتحديث السياسي

بدأت التصرفات الانكليزية تتبدل بشكل حاد تجاه ثقافات إفريقية الاستوائية عام ١٨٨٠، وقبل ذلك بعدة عقود بين ١٨٣٠ و١٨٧٠، سلّم معظم المراقبين الإنكليز بضرورة تحضير إفريقية، وأنه يجب نشر الحضارة عبر نفوذ المبشرين الشبه مباشر والعلاقة التجارية وليس من خلال الحكم البريطاني. وبينما كان بعض الوجود البريطاني مسلّماً به في الحصون الساحلية، أوصى بعضهم أو توقع نوعاً من الغزو أو الضم الذي حصل في العقود الأخيرة.

وفي عام ١٨٩٠، تبدلت هذه الافتراضات بشكل مأساوي عندما ضمت بريطانيا أسنتة والأراضي الشمالية، ولم يعد الإنكليز ينظرون بعين الرضى للأفارقة الموجودين في مراكز عليا في المستعمرات وبدؤوا تدريجياً بإقصاء الأطباء الأفارقة من الخدمة الطبية الإفريقية الغربية لتقليص تعيين الأفارقة في مراكز عليا في الخدمة المدنية، ولتخوين الأفارقة الذين بدؤوا يلعبون دوراً في السياسات الاستعمارية، خاصة المحامين المتخصصين الذين درسوا في بريطانيا للعمل في المحاكم الاستعمارية، لم تكن الفكرة الجديدة للوصاية تتعارض مع تحديث إفريقية الاستوائية أو الساحل الذهبي، لكنها كانت مرتكزة على الاعتقاد بأن التحسينات في المستقبل القريب ستتجز بشكل أفضل مع وجود مسؤولين إنكليز في موقع المسؤولية، والأفارقة في مواقع أدنى.

كان من الصعب استعادة كل المكاسب التي حصل عليها الأفارقة في مستعمرة الساحل الذهبي، لكن كان من الممكن التعامل بشدة أكثر مع المناطق الملحقة حديثاً. ولم تصبح هذه المناطق جزءاً من المستعمرة بل جرى تنظيمها على حدة، مثل أسنته والمناطق الشمالية وأرض توغو البريطانية، وجرى تنظيم المناطق الجديدة على أنها محميات لا يطبق فيها القانون البريطاني بالضرورة. وافتقر السكان إلى حقوق المواطنين البريطانيين وكانوا فقط أشخاصاً خاضعين لحماية بريطانيا، وكان هذا التمييز واضحاً، وقد تم تطبيق قانون ١٨٣٣ حول تحرير العبيد في الإمبراطورية البريطانية في المستعمرات فقط، وليس المحميات، وجرى منع المحاكمات لفترة من قبل محلفين في المناطق الجديدة خوفاً من حصول مشكلات مع المحامين الأفارقة المدربين في بريطانيا.

وعبر العقود بين ١٨٩٠ و١٩٢٠، كانت سياسة الحكم غير المباشر معتبرة أفضل طريقة للحكم في المستعمرات من قبل الإنكليز. كان من السهل الحكم بواسطة الزعماء في هذه الفترة، لكن الدعوات في هذه الفترة شددت على الحكم غير المباشر وفق قواعد جديدة، وكانت متأثرة بشدة بالعنصرية الأوروبية السائدة في

ذلك الوقت. لم يكن الجدل الثقافي نسبياً فقط حول ضرورة حكم الأفارقة وفق طريقتهم. واعتقد بعض الإنكليز أن الطريقة الإفريقية هي بجودة الطريقة البريطانية لحكم الأفارقة، ولكن معظم الإنكليز يعتقد أنها الطريقة الأمثل لحكم شعب له وضع عرقي أدنى.

ونتيجة لهذه التصرفات الجديدة في مرحلة الوصاية، كان انتشار الأسلوب الغربي في الحكم مجمداً فعلياً منذ ١٨٩٥ إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من الانتخابات التمثيلية في المستعمرة، لم تمتد الحكومة الديمقراطية إلى أسنتة والمناطق الشمالية أو توغو حتى عام ١٩٤٦ أي قبل أقل من عشر سنوات من الاستقلال.

## التعليم:

بالرغم من إهمال التحضير للحكم الذاتي، أسهمت الإدارة البريطانية ببناء أمة بأساليب أخرى غير متوقعة. واشتمل قرار مهم على خطة عمل للغة. وكانت هناك عدة خيارات متوفرة. ويمكن أن يكون التعليم باللغة الأم للطلاب أو مزيج من اللغة الأم والإنكليز أو الإنكليزية منذ البداية. ويمكن أن تكون لغة إفريقية غير اللغة الأم للطلاب. وقد جرى استخدام لغة السواحلي بهذه الطريقة في كينيا وتنزانيا مع أنها كانت اللغة الأم لأقلية صغيرة فقط. وأصبحت لغة Bazan Mabay أندونيسية بالطريقة نفسها تقريباً. وأفادت لغة المالاي إندونيسيا كثيراً، لكن بعض السلطات بنت أفكارها حول السياسة اللغوية الإفريقية بناء على افتراضات عرقية. واعتبرت أن اللغات الإفريقية بالرغم من مستواها المتدني عن الانكليزية تلائم بشكل أفضل الوضع العرقي للأفارقة. وقد اقترح مسؤول أن يكون التعليم الابتدائي في الساحل الذهبي بلغة Hause اللغة الرئيسة لشمال نيجيريا وغير مرتبطة لغوياً بأي لغة للساحل الذهبي.

ولحسن حظ الساحل الذهبي، تم اتخاذ قرار بأن تكون الانكليزية لغة التعليم بما في ذلك البعثات التبشيرية المهمة، وقد فتحت اللغة الانكليزية آفاق العلم المتوفرة في العالم خارج إفريقية. وأصبحت اللغة الانكليزية اللغة الوحيدة للإدارة ولغة قيادة الفوج العسكري في الساحل الذهبي. أضف إلى ذلك، لم يكن المسؤولون الاستعماريون متحمسين بشدة لتعلم لغة Twi، المحكية بشكل واسع في AKAN. وقد جرى في أغلب الأحيان تبني سياسة مختلفة في مكان آخر من إفريقية البريطانية، حيث كان متوقعاً أن يظهر المسؤولون مستوى من الكفاءة في اللغة الإفريقية، ولغة السواحلي لغة قيادة فرقة البنادق الملكية الإفريقية في شرق إفريقية، وكان على الإداريين في شمال نيجيريا معرفة بعض HAVSA وفي بعض الأحيان لغة Fulena أيضاً.

كانت سياسة تشجيع الأفارقة على التطور على طريقتهم متناقضة في الواقع، فقد أيد عدد قليل من الإداريين الطريقة الإفريقية فعلياً. وبالرغم من تقديم الخدمات على الطريقة الإفريقية، فقد استخدم المكتب الحكومي، ورجال الأعمال الإنكليز والبعثات أشخاصاً يعرفون القيام بأعمال على الطريقة البريطانية فقط. وكان الاقتصار على استخدام المواطنين الإنكليز مكلفاً بشكل كبير؛ لذا لم يكن هناك من تدريب الأفارقة على العمل، وأدى ذلك إلى الحاجة العملية لمدارس أكثر بما في ذلك المدارس الثانوية. وكانت المدارس الثانوية كبيرة دائماً مما جلب أشخاصاً من مختلف المناطق. وكما في بريطانيا، صقلت التجربة المدرسية أواصد الصداقة والتعاون. وخارج هذه الشبكات القديمة. فقد أدى النمط الواحد للغة التعليم إلى زيادة أعداد الذين يتواصلون دون الالتفات إلى خلفيتهم العرقية، وقد كانت هذه النخبة المتعلمة هي التي شكلت حركة الاستقلال.

ففي عام ١٩٣٠، كان لدى هذه النخبة من المشترك ما يكفي لتأسيس أمة أساسية بالرغم من أنها كانت مقتصرة على جزء صغير من السكان.



obeikandi.com

## الخطط الممكنة للاستقلال:

أصبحت غانا مستقلة ضمن حدود مستعمرة الساحل الذهبي، والمحميات المرتبطة بها، لكن كان هذا الخيار حتمياً، ويستطيع الناس اختيار أيٍّ من الأمم العديدة الممكنة التي يشعرون بالانتماء إليها. كما كان للزعماء السياسيين في الإمبراطورية العثمانية، حق الاختيار بين الهوية العثمانية والهوية الإسلامية، والهوية التركية التي برزت أخيراً من خلال الجمهورية التركية الحالية، كان للزعماء السياسيين في الساحل الذهبي المجموعة نفسها من الخيارات، وكان هناك تنوع في الأحاسيس المختلفة من التضامن الحالي، واستمر، وتغير مع مرور الوقت.

كانت الأنماط العرقية في معظم التصرفات الأوروبية تجاه إفريقية – الشبه صحراوية – عاملاً يحدد اختيار الهوية. وكان الرد الإفريقي السعي للتضامن مع مواطنين آخرين بالمواصفات نفسها والعمل على ربط كل شعوب إفريقية – الشبه صحراوية – والشتات والأمة الإفريقية التي برزت، واستمرت بتشكيل مطالبة فاعلة في بعض الحالات. غير أن هدف ولايات متحدة إفريقية لم يكن قوياً. وقد برزت وحدة ممكنة قاعدتها غرب إفريقية البريطانية عام ١٩٢٠ على شكل اتحاد بين غامبيا وسيراليون والساحل الذهبي ونيجيريا، لكن هذه الفكرة فقدت استمراريتها مع اقتراب موعد الاستقلال.

وكانت وحدات أصغر من غانا الحالية ممكنة أيضاً. كان من الممكن نظرياً حصول تفكك في البنية الاستعمارية لأسنتة وأرض توغوا البريطانية والمناطق الشمالية، وكانت أمة AKAN الساعية إلى توحيد حضارة AKAN في ساحل العاج والساحل الذهبي ممكنة التحقيق أيضاً، لكن لم تبرز هذه الحركة وكانت المطالبة الوحيدة لتوسيع الأمة صادرة عن حركة EWE الطامحة لتوحيد الشعب المقسم بين الانتداب البريطاني، والفرنسي وكانت بعيدة عن حدود الساحل الذهبي، لكن حتى هذه الحركة كانت ضعيفة. وكانت حركة التحرير الوطني الحركة الأقوى من بين

القاعدة العرقية للساحل الذهبي والتي أسست مملكة أسنتة. وقد نمت لفترة وجيزة في أواسط ١٩٥٠ مع الولاء لأسنتة التي ظلت قوة سياسية.

وكان كوامي يذكر ويقول دائماً إن على الأفارقة السعي أولاً للاستقلال في أي حدود سياسية ممكنة معترف بها من أوروبا، ثم العمل لتحقيق الأهداف الأخرى وفق هذه الخطة. وكانت الجغرافيا السياسية ثابتة منذ الاستقلال مع أنه لوحظ دائماً أن الحدود الطبيعية ناقصة. لكن كان الساحل الذهبي في أول الخمسينيات في طريقه ليصبح مستقلة قابلة للحياة جزئياً كونها ظلت طبيعية لفترة طويلة دون تغيير وجزئياً بسبب التكامل الاقتصادي الذي حصل خلال النصف قرن الماضي.

## التكامل جغرافياً واقتصادياً:

كانت منطقة الساحل الذهبي الذي سماه الأوروبيون مميزاً طبيعياً بشكل لم يكن ظاهراً في الحال. وقد أخذت اسمها من مناجم الذهب في أكان AKAN التي أنتجت ذهب التصدير عبر البحر في أوائل ١٤٨٠. وقد جذبت مناجم الذهب التجار من الشمال في وقت مبكر بحيث فتح الاتصال البحري علاقات تجارية امتدت من خليج غانا حتى حدود الصحراء وما وراءها.

وكان الساحل الذهبي مميزاً لسبب آخر، كان الساحل الشرقي والغربي لخليج غينيا عرضة للعواصف والتيارات من الغرب. وتميز معظمه بشاطئ مشبع بالطبقات وأمواج قوية تجعل من الصعب الرسو. غير أنه يوجد على طول الساحل الذهبي سلسلة أراض صخرية تؤمن نسبياً النزول بأمان على الجانب البعيد عن الرياح.

وفي بعض النقاط مثلاً المينا، يضم الرأس خليج صغير يجعل نزول البواخر أسهل. وتستطيع التحصينات على الرؤوس الصخرية حماية أماكن النزول، وقد شجعت هذه الحقيقة - إضافة إلى الحاجة لحماية الذهب المعد للشحن - الأوروبيين على بناء صف سميك من التحصينات لا مثيل له في إفريقية الغربية الاستوائية. وكانت عملية النزول أكثر صعوبة إلى الشرق والغرب من الساحل

الذهبي، لكن كانت البحيرات الساحلية تمتد غالباً بشكل موازٍ للشاطئ على بعد بضعة أميال فقط على اليابسة، ومن هنا وهناك فقد أصبحت الانفتاحات المهمة على البحر مثل لاغوس وأبيدجان لاحقاً مواني رئيسة.

لم يكن هناك ميناء طبيعي يضاهي الساحل الذهبي، لكن الإدارة البريطانية عمدت عام ١٨٩٨ إلى بناء ميناء اصطناعي في تاكورادي لاستخدامه قاعدة لسكة الحديد التي وصلت إلى كوماسي عام ١٩١٩ وامتدت بعد ذلك لتصل إلى أكرا. وقد أضيفت الطرق المتحركة لتوسيع عمليات ربط السكة بنقطة الشحن الرئيسة في تاكورادي. وقد ساءت حالة الطرق مع اقترابها من الحدود الاستعمارية المخصصة لحركة البضائع، والناس باتجاه الشبكة الاستعمارية. كما شكلت اللغة والتعليم نموذجاً موازياً للحياة الفكرية.

وتحرك النمو الاقتصادي من خلال توالي تصدير المحاصيل، وفي منتصف القرن الثامن عشر كان التصدير الرئيس من منتجات النخيل التي شكلت ٤٤ بالمئة من الصادرات عام ١٨٩١ مع ٣٠ بالمئة للمطاط.

وجاءت هذه المنتجات من مناطق الغابات في الداخل، وقام التجار الأفارقة بتنظيم شحنها إلى الشاطئ حيث اشترتها الشركات الأوروبية وعملت على تجهيزها للشحن.

بعد عشرين عاماً، حل الذهب والكاكاو مكان منتجات المطاط والخيل. ففي عام ١٩١١، رفعت التكنولوجيا المنجمية الحديثة حجم الذهب إلى ٣٠ بالمئة من الصادرات، بينما وصل حجم صادرات الكاكاو إلى ٤٦ بالمئة. وكان العقدان اللذان انتهيا عام ١٩١١ عقدا ازدهار بالنسبة لدخول الساحل الذهبي عالم الاقتصاد حيث تضاعف دخل الفرد. وقد تطلب دخل الفرد نصف قرن مجدداً أي حتى عام ١٩٦٠.

وكان معظم رأسمال زيادة إنتاج الذهب أوروبي المنشأ، لكن الأفارقة قدموا الرأسمال والكفاءات التجارية لتجارة منتجات المطاط والنخيل، واتسعت مع الوقت لتشمل الكاكاو. وقد بدأ العديد من التجار النشطين بإقامة مركز من المدن الساحلية

على شاطئ الكاب أو أكار، لكن بعضهم جاء من المدن الداخلية في Ashanti، ومهما كانت قاعدتهم الأصلية. عمل التجار الأفارقة بشكل متزايد ضمن هيئة تجارية عملت على التوسع إلى ما وراء المنطقة المحلية نحو الحدود الاستعمارية.

ويمكننا النظر إلى هذا المجال الواسع من الاندماج الاقتصادي عبر تاريخ زراعة الكاكاو. وكان الكاكاو ومحصول أميركي غير معروف في الساحل الذهبي قبل ١٨٩٠ عندما تم إدخاله إلى جزيرة بيوكو الساحلية التي أصبحت لاحقاً مستعمرة إسبانية، ثم امتد عبر المناطق الحرشية للساحل الذهبي بمبادرة شبه كاملة من المزارعين الأفارقة. وفي عام ١٩٢٠ أصبح الساحل الذهبي أكثر إنتاجاً للكاكاو في السوق العالمية. ويعد موضوع انتشار الكاكاو مشروعاً استثمارياً ناجحاً، وقد شكلت Akwepin Ridge مركزاً برياً لأكرا، وكان مزارعو Akwapin متورطين أساساً في زراعة المحاصيل المعدّة للبيع والتي تلبي احتياج السوق، لكنهم تحولوا بسرعة إلى زراعة الكاكاو. والكاكاو عبارة عن شجرة تحتاج بضع سنوات بين الزراعة والإنتاج، لكن عندما تبدأ بالإنتاج فإنها تعطي بسخاء مانحة المزارع رأسمال للتوسع. وبما أن الأرض المناسبة لم تكن متوفرة في الجوار فقد أقام مزارعو الكاكاو على مساهمة محمية من قبل الزعيم المحلي بعيدة نسبياً. وخلال عقود قليلة، كان لدى مستثمري الكاكاو الأصليين في Akwapin مزارع منتشرة عبر المنطقة الحرشية، ثم توسع زرع الكاكاو غرباً وشمالاً. وقد تمت إقامة النظام نفسه تقريباً في مراكز الإنتاج الأخرى السابقة مثل أشانتي. وخلال عقود قليلة زاد حجم الاستثمار للكاكاو لدى المزارعين الأفارقة وتعدى مجال وحدتهم السياسية قبل الاستعمار.

واقتصر الكاكاو على الحزام الحرشي لكنه جذب الناس إلى اقتصاد زراعي أوسع وأكثر تكاملاً. وقد أدى ازدياد إنتاج الكاكو إلى نقص في اليد العاملة في المنطقة الحرشية مما جذب الناس من الشمال خاصة في موسم الحصاد، علماً أن منطقة ريف سافانا إلى الشمال من الغابة تمر بمرحلة جفاف لستة أشهر، حيث يمكن ممارسة زراعة صغيرة. وتصادف هذا الركود مع موسم حصاد الكاكاو. عندها بدأ

الشماليون الانتقال جنوباً بشكل يد عاملة مأجورة، لكن ما بدأ حركة موسمية امتد إلى سنوات، وبدأ المهاجرون الذين اقتصروا على الرجال أولاً بإحضار علائلاتهم. ومع الوقت، جذب إغراء منطقة الكاكاو أشخاصاً من وراء حدود الساحل الذهبي من بوركينا فاسو، ومن المستعمرات الفرنسية. وقد ساعدت عمليات الهجرة في بداية القرن -والتي استمرت عدة عقود- على اندماج أهالي المناطق الشمالية ضمن مناطق تطور اقتصادي في الحزام الحرشي والساحل.

## التحرك السياسي

يمكن ملاحظة علامات القومية الحديثة في الفترة التي سبقت إنشاء الإنكليز لمستعمرة الساحل الذهبي عام ١٨٧٤، وأبعد من ذلك، أي منذ إنشاء اتحاد MANKESSIM واستمراره إلى نهاية القرن وبعده، كان الاتحاد يشتمل على مجموعة صغيرة من الأفارقة ذات الثقافة الغربية. وقد بدأت الصحف الصادرة بالإنكليزية من قبل صحفيين أفارقة بالصور، وانضم المحامون والأطباء الأفارقة المدربون من البريطانيين إلى مجموعات النخب القديمة من التجار والزعماء التقليديين.

ولم تكن هذه الجماعات على اتصال وثيق مع القرويين في الريف لكنهم كان باستطاعتهم التأثير على الحكومة الاستعمارية. ومع أن معظم أعضاء المجلس التشريعي من الموظفين الحكوميين، فقد جرى تعيين أقلية صغيرة أعضاءً غير رسميين حتى يستطيع المجلس العمل على شكل برلمان محلي محدود السلطات. وقد انبثقت عن المدن الرئيسة الثلاث مجالس بلدية أيضاً بسلطات محدودة لكنها كانت أيضاً منتدى للسياسات الاستعمارية.

في بعض الأحيان، استطاعت مجموعات النخب المحلية اللجوء بفاعلية إلى الحكومات المركزية في لندن كما فعلت عام ١٨٩٠ من خلال تأسيس جمعية حماية حقوق السكان الأصليين. وكانت المناسبة صراعاً حول أراضي أدّى بمعاونة الحكومة

الاستعمارية إعلانها أراضٍ غير صالحة. وقد ردت مجموعة من الزعماء التقليديين والمحامين الأفارقة باسم حقوق الأفارقة، لم تكن النتيجة لصالح حقوق الأفارقة بالأرض بقدر حق الزعماء في بيع الأراضي لصيدايين يملكون ترخيصاً. ونادراً ما كانت حقوق الفلاح الإفريقي الذي يعيش على الأرض طرفاً في النزاع، لكن أظهرت النتيجة أن عمل الزعماء التقليديين والمحامين الأفارقة معاً تستطيع التأثير على سياسات الحكومة.

كانت لجماعات النخب في إفريقية الغربية البريطانية مصالح مشتركة أكثر مع الجماعات الأخرى في المستعمرات البريطانية مما لها مع الطبقة الفلاحية في الأراضي النائية. لم يكن المؤتمر الوطني لإفريقية الغربية البريطانية والذي تأسس عام ١٩٢٠ مع فروع في المستعمرات البريطانية الأربعة وطنياً بمعنى المطالب بالاستقلال، لكنه خدم مصالح النخبة الإصلاحية. وكان برنامجه يدعو إلى محاكم استئناف إفريقية غربية، وإلغاء التمييز العنصري في الخدمة المدنية وإقامة جامعة إفريقية غربية، وكانت هذه الحلول تلبي مطالب الأقلية الإفريقية المتغربة وتخص نظاماً إفريقية غربياً شاملاً مع أنها تتحدث قليلاً عن مصالح رأي عام واسع من أي مستعمرة. في البداية، عمل الزعماء التقليديون والمثقفون المتغربون معاً وكانوا غالباً من الأقارب. غير أنه في عام ١٩٢٠، بدأ التعاون يتفكك بين المجموعتين بعد دخول سياسات استعمارية جديدة على الساحة مساندة مطالب الزعماء بالتحدث باسم الناس على نطاق واسع ومنكرة المطالب نفسها للطبقات المثقفة المتغربة المدنية.

وشكل الدستور الجديد عام ١٩٢٥ والذي استمر حتى عام ١٩٤٦ نوراً عالياً بالنسبة للسياسة البريطانية في الساحل الذهبي. ومع أنه لم يشكل خطوة كبيرة إلى الأمام، لكنه قدم الكثير للمثقفين الأفارقة بعكس الحكومات الاستعمارية السابقة. فقد وصل عدد المراكز الحكومية العليا التي يشغلها الأفارقة إلى الثلاثة أضعاف، مع أن آخر زيادة حصلت قبل الحرب العالمية الثانية. وفيما يختص بالمستعمرة، حيث يتمتع الناس بوضع مواطنين بريطانيين، تم إنشاء مجالس مقاطعات من الزعماء

على غرار مجلس اللوردات في كل مقاطعة، ويقوم مجلس المقاطعة باختيار ستة من أعضائه لتمثيله في المجلس التشريعي. وكان مسموح للناخبين الأفارقة في كل من المدن الثلاثة الكبرى التي انتخبت مجالس بلدية انتخاب عضو إلى المجلس التشريعي. بمعنى آخر، كانت المجالس المحلية بين أيدي الزعماء في المستعمرة وخارجها، ولم تكن Ashente وتوغو والمناطق الشمالية ممثلة حتى في المجلس التشريعي.

وقد مثلت هذه السياسة تنوعاً في الاستراتيجيات التي اتبعها الهولنديون في أندونيسيا في الفترة نفسها مرتكزة على خوف مماثل من المثقفين المتغربين ومطالبتهم بدور في الحكومة الاستعمارية. وكانت الحكومة البريطانية تهدف إلى ثبات الحكم غير المباشر عبر إعطاء السلطة المحلية للزعماء كما فعل الهولنديون مع الأوصياء. وكان الزعماء يعملون على شكل حكومة ظاهرة مع سيطرة بريطانية مبطنة. غير أن حكومة الساحل الذهبي كانت أكثر فاعلية في الهولندية في أندونيسيا، ربما بسبب الخطر الأقل من ثورة عنيفة. ولم يكن لدى الساحل الذهبي حركات جماهيرية مثل Sarket Islam أو مساوٍ للثورة الشيوعية في جاوا عام ١٩٢٦. لكن بالرغم من نوايا الحكومة والاضطهاد الواسع فقد ازداد عدد ونفوذ المثقفين الأفارقة خلال الحرب الداخلية. ولم يكن يتمتع الغالبية العظمى من المثقفين الأفارقة في الساحل الذهبي بتعليم يفوق المرحلة الابتدائية، لكن ذلك كان كافياً لتأهيلهم للعمل في القطاع الأوروبي والحكومات.

وقد جاء البرهان الرئيس للمعارضة الصاعدة من صفوف القاعدة من النخبة في مصدرين. كان المصدر الأول حركة ناشئة مناهضة للأرستقراطية على المستوى المحلي، فقد كان لدى معظم زعامات أكان AKAN ذريعة دستورية لإقصاء زعماء من مراكزهم بمبادرة من العامة. استمرت العملية المسماة بالإقصاء تحت إشراف البريطانيين وجرى استخدامها خلال عقود الحرب الداخلية التي حدثت في الماضي. وكان العامة أيضاً أكثر نشاطاً في سياسات Sbols مما كانوا عليه، غير أن هذا النشاط أثار الاستياء المحلي بدل المطالبة بالاستقلال.

obeikandi.com

وكان النوع الثاني من المعارضة المنظمة موجهاً ضد الأمير المعين من الشركات الأوروبية المستوردة للكاكاو ليس ضد الحكومة الاستعمارية، وكانت أسعار الكاكاو تنخفض بسرعة أكبر من أسعار البضائع المصنعة والتي يستوردها الساحل الذهبي بشكل مشابه لأسعار المواد الأولية الأخرى في سنوات الكساد. وكانت تعقد اتفاقيات مفتوحة كل بضعة سنوات، وكان لدى المزارعين الأفارقة مصدر دخل صغير، لذلك حاولوا أحياناً وقف أو رفض البيع بأقل من السعر الأعلى المنافس. لكن معظم هذه الجهود كانت محلية وغير فاعلة. وعندما وافقت الشركات المستوردة مجدداً على تثبيت الأسعار في صيف ١٩٣٧، قامت نقابات المزارعين وبعض الزعماء التقليديين ومجموعات أخرى بتنظيم عرقلة في الساحل الذهبي وأشنتي وتوغو. وكانوا ناجحين في الإمساك عملياً بكامل المحصول، واتبعوا طريقة التوقف ومقاطعة الشركات المعتدية. وفي نيسان ١٩٣٨، استسلمت الشركات الأوروبية، ووافقت على شراء محصول الكاكاو بسعر منافس.

في الوقت نفسه، كان لدى الساحل الذهبي أكثر من مئة ألف مزارع كاكاو. ولم يكن التنظيم الفاعل لمثل هذا العدد الكبير في تحرك مشترك نصراً فقط على الصعيد الاقتصادي بل شكل دلالة أيضاً للمستقبل. وبالرغم من مرور عقد من الزمن قبل أن يتخذ أيٌّ تنظيم مشابه شكلاً سياسياً أو حركة استقلال.

## الحرب ومجيء الاستقلال:

ومثل أي مكان آخر من العالم، سرّعت الحرب العالمية الثانية عملية التغيير في بعض الحالات وأخرتها في حالات أخرى، وحرفت اتجاه التغيير في أخرى، أيضاً وكانت إفريقية الغربية متورطة قليلاً في العمل العسكري المباشر. فقد كانت المناطق الفرنسية الخاضعة لحكومة فيشي الفرنسية وحدها تحت السيطرة غير المباشرة لدول المحور، ولم تكن تشكل خطراً كبيراً لجيرانها الخاضعين للسيطرة البريطانية طالما تهيمن القوة البحرية للحلفاء على الخطوط البحرية. غير أن قوات إفريقية

الغربية شاركت في حرب ما وراء البحار في شرق إفريقية وبورما. ومثل بقية إفريقية الغربية البريطانية، مر الساحل الذهبي بمرحلة من التعبئة والإرباك ونقص المواد الاستهلاكية خلال الحرب. ومع نهاية الحرب، ازداد الاستياء العام، واتخذ صدى جديداً. قام المحاربون العائدون من تجربة في الخارج بمبادرة جديدة. فقد وفرت الموجات القصيرة المدى -من الممكن لسكان القرى الجاهلة والبعيدة- الحصول على معلومات وافرة عن العالم الخارجي. وكان الانتقال السريع نحو الاستقلال في الهند وباكستان معروفاً وكذلك بروز ثورات وطنية في جنوب شرق آسيا.

وقد ظهر حزبان وطنيان متنافسان في الساحل الذهبي: مؤتمر الساحل الذهبي الموحد بقيادة DANQUAH B.J ممثلاً الجيل القديم من زعماء النخبة الذين توقعوا السماح لهم بالاستيلاء على الحكومة الاستعمارية في الوقت المناسب كما فعل حزب المؤتمر في الهند. وكان حزب المؤتمر الشعبي حركة راديكالية منظمة أكثر من كاومي نيكر ورفاقه لمواجهة موقف حزب المؤتمر الموحد مرتكزين على دعم شعب واسع من كل الطبقات.

في غضون ذلك، قررت الحكومة البريطانية في أواخر ١٩٤٠ القيام بتحرك في المستعمرات الإفريقية الغربية، وخططت للاعتراف بالاستقلال في المستقبل القريب، لكن مع فترة تأخير في مناقشة التفاصيل وعلى نجاح شكل من الاستقلال يكون لمصلحة بريطانيا. وفي البداية، اندلعت تظاهرات خطيرة في مدن الساحل الذهبي عام ١٩٤٨، وقد سجن كوامي نيكروما لفترة قصيرة عام ١٩٥٠ لكن حزب مؤتمر الشعب خرج منتصراً ضد حزب المؤتمر الموحد في أول انتخابات شعبية، وتم تحرير نيكروما من السجن ليصبح رئيس وزراء جلالته.

وخلال العشر سنوات من الأزمة بين ١٩٤٨ و١٩٥٧ ومن خلال كل التغييرات، كان العامل العرقي في السياسات أكثر ليونة مما كان عليه في أماكن أخرى من إفريقية الاستوائية. ولم يكن أيٌّ من حزبي المؤتمر الوطني أو المؤتمر الموحد حزباً له أصول عرقية. وقد تحدثت حركة تحرير وطني ضعيفة نسبياً عن انفصال أسنتة لفترة

قصيرة في منتصف الخمسينيات، وقد تحقق الاستقلال رسمياً عام ١٩٥٧ على نمط النظام البريطاني والكندي حيث تعتبر السلطة التنفيذية من مسؤولية الأعضاء المنتخبين في البرلمان، وأعيدت تسمية الساحل الذهبي - غانا - على غرار اسم المملكة الإفريقية القديمة على طرف الصحراء إلى الشمال. وكان لدى غانا عند الاستقلال أعلى دخل وطني للفرد من إفريقية الاستوائية، وساد اعتقاد واسع حول وعد كبير أن تكون القيادة المستقبلية لإفريقية ديمقراطية.

ولم يدم هذا الوعد عشر سنوات. ففي عام ١٩٦٠، قام حزب نيكروما CCP بالتصويت ديمقراطياً وبشكل غير دستوري لتحويل البلاد إلى دولة الحزب الواحد وجمهورية دامت حتى ١٩٦٦. وظلت عناصر ديمقراطية داخل حزب الشعب الوطني، لكن نيكروما أقصى أو أقال القيادة الرئيسة الأصلية موجهاً الحزب نحو اليسار، وزاد في سلطته الشخصية تدريجياً. وفي منتصف الستينيات لم يفشل وعد التحديث الاقتصادي عند الاستقلال في الظهور فقط، بل بدأت قطاعات من الاقتصاد بالانهيار. وقد بات نقص الأغذية ومواد استهلاكية أخرى مؤكداً وانخفضت الأجور. وقامت حكومة حزب الشعب الوطني أيضاً باستعادة مجموعات عرقية معينة. وفي عام ١٩٦٦، ساء الوضع كثيراً بحيث شعر الجيش بالحرية للتدخل. وقامت سلطة عسكرية بإقصاء نيكروما عن السلطة وألغت حكومة الحزب الواحد، لكن الحكم الجديد لم يكن أكثر ديمقراطية من سلفه.

وكان انقلاب عام ١٩٦٦ الأول في سلسلة انقلابات وانقلابات مضادة سيطر فيها العسكر واستمرت فترة الانهيار الاقتصادي حتى أواخر ١٩٨٠، ولم يكن مصير غانا خلال هذه العقود ساراً أو أقل سروراً مما هو عليه في الدول الأخرى المستقلة حديثاً في إفريقية الاستوائية خلال الفترة نفسها. وقد حكمت الحكومات السلطوية غالباً لمصالحها الخاصة، وارتكب العديد منها أخطاء جسيمة في السياسة الاقتصادية. ومن الصعب التغاضي عن خطاب نيكروما الساخر عام ١٩٥٧ والذي ذكر سابقاً: «اسعوا أولاً للمملكة السياسية وكل الأمور ستأتي بعد ذلك» إلى درجة أن

كل الأشياء تتضمن الحديث الاقتصادي المؤدي إلى إنتاجية عالية واستهلاك فردي لم يحدث.

بالرغم من الاختلافات الرئيسة بين غانا وأندونيسيا فقد ظهرت تعميمات مقارنة، وكان أكثرها أهمية توحيد دور إشراف دولة استعمارية واحدة. غير أن تجربة الساحل الذهبي والأنديز الهولندية أظهرت أن ما حصل يندرج ضمن خطة الدولة الاستعمارية لم يكن كلياً أو في معظمه، وهذا ما واجهه الأوروبيون.

لقد وضعوا خطة تتضمن خصائص مهمة مثل اللغة للتواصل الداخلي على المستوى العلمي، ونظام تعليمي واحد، وكيان سياسي حصل فيه تحول اقتصادي. وبعد وضع الخطة، كانت المبادرة بيد أشخاص محليين بدءاً من الوسطاء الذين تختارهم سلطة الحكم لكن اتسع ذلك مع الوقت ليشمل قطاعات عديدة ومتنوعة من المجتمع.

وقد استمر الكيان السياسي الذي برز في كلا الحالتين لبضعة عقود، لكن لم يكن الوضع نفسه في عالم ما بعد الاستعمار. وقد تفككت عدة دول استعمارية سابقة. وقد تم الحفاظ على الوحدة الأندونيسية أحياناً من خلال استخدام القوة فقط، وظل العنف بين المناطق قائماً. ومع ذلك كان العمل الداخلي للحكام الأوروبيين والسكان المحليين عملاً معقداً، وقد شابك عبر العقود وأدى إلى وضع مجتمع أكثر تماسكاً وقابلية للحياة مما جرى التنبؤ به منذ قرن أو قبله.

# الخاتمة

كان صعود الغرب إلى وضع من الهيمنة أحد أهم التطورات في تاريخ العالم في العقود الأخيرة. وقد تعامل العديد معه ببعض المنهجية المركزية، فبالنسبة للتاريخ الأوروبي وحده أو التاريخ الاقتصادي أو تاريخ النظام الدولي وكان على كل من يكتب عن عالم ما وراء أوروبا الأخذ بعين الاعتبار صعود الغرب بإدراك أو دون إدراك.

وبالنسبة لعالم ماوراء الغرب، فإن الواقع المركزي في هذه الفترة هو تحدي الغرب والرد عليه، وقد تعامل العديد من المؤرخين مع هذا الموضوع بطرق مختلفة، وتمثل هذه البحوث مدخلاً مميزاً مع توضيح على ردود غير الغربيين الظاهرة من خلال دراسات لحالة من المشكلات الخاصة عوضاً عن معاني واسعة وتعميمات شاملة. ويبدو اختيار الحالات متعلقاً بخصوصية فردية ولكن لم يكن عشوائياً. وقد تم اختيارهم في محاولة للنظر إلى ردود متنوعة ضمن نطاق ضيق. وكان الانشغال الحاد في حالة الموضوع من مناقشة القرارات الإدارية وآثارها في جنوب شرق آسيا على شؤون فلاحي المايا في بوكتان مقصوداً. وتمثل النظرتان فقط جزءاً من كل الحقيقة، وتمثلان معاً جزءاً من التنوع الحاصل حالياً. وتسعى البحوث إلى إدخال وجهة نظر تاريخ العالم ليس عبر إيراد كل الأشياء المهمة التي حصلت في أي مكان، إذ هي استحالة واضحة، لكن عبر الحديث حول مجموعة من الأشياء المختلفة التي حصلت في أماكن مختلفة ضمن خطة مجتمعات إنسانية مختلفة.

وتجسد الأبحاث أيضاً طوقاً في التاريخ المقارن مع موقف خاص حول أي المقارنات أكثر قيمة. ويقارن ببعضها الأوضاع المتشابهة، ويبحث آخرون عن النقاط المشتركة في ظروف غير متشابهة، ولكلا المدخلين استخداماتهما .

إن مقارنة التحديث في اليابان وتركيا مألوف وجرى التعامل معه في آخرين من وجهات نظر مختلفة، كان لمقارنة Maya, Yaqui عامل مشترك في النقض الإسبان والمكسيكي. وتعد مقارنات أخرى متباعدة عن قصد مثل الردود على تحديث النخب في اليابان وبوغندا. وتساعد مثل هذه المقارنات للأحداث في أضرار متباعدة من العالم على الصعود فوق الوضعية الثقافية المباشرة. وهناك في الفصل حول تغيير الثقافة في المجتمعات الكلية مثل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى السوفياتية له هذا الهدف وكذلك الفصلين حول بناء الأمة في غانا وأندونيسيا.

وتبرز في المنظور بعض الموضوعات المشتركة، ويعد الموضوع الأول تأملاً حول التحول التاريخي عموماً والتفاوت بين مقاصد اللاعبين الرئيسين والنتائج الراهنة، ويعد مقارنات أخرى متباعدة عن قصد مثل الردود على تحديث النخب في اليابان وبوغندا. وتساعد مثل هذه المقارنات للأحداث في أجزاء متباعدة من العالم على الصعود فوق الوضعية الثقافية المباشرة. وهناك في الفصل حول تغيير الثقافة في المجتمعات الكلية مثل جنوب إفريقية وآسيا الوسطى السوفياتية له هذا الهدف، وكذلك الفصلين حول بناء الأمة في غانا وأندونيسيا.

وتبرز في المنظور بعض الموضوعات المشتركة، ويعد الموضوع الأول تأمل حول التحول التاريخي عموماً والتفاوت بين مقاصد اللاعبين الرئيسين والنتائج الراهنة. ويعتبر الموضوع الثاني الذي تدار فيه الأمبراطوريات الأوروبية من غير الأوروبيين. ليس تأملاً فحسب لحقيقة أن أوروبا غزت العالم بشكل رئيس بجنود غير أوروبيين وكانت هذه حالة أيضاً، لكن من واقع أن الحكم الراهن للمجتمعات المغزوة بين أيدي المحليين أكثر منه بين أيدي الإداريين الأوروبيين. وقد ظهر هذا الموضوع مع ثالث. كان النقل الثقافي عن الغرب نادراً مسألة تقليل كلي. وقد تم تكييف المواد المنقولة ثقافياً ضمن قالب ثقافي موجود. ولم تكن العولمة لثقافات العالم طريقاً باتجاه

واحد. إن النقل عن غير الغربي أقل وضوحاً لدى الغربيين لأنه وضع ضمن قالب ثقافي غربي مألوف.

وكان الموضوع الأخير الأكثر وضوحاً غير أنه لم يؤكد بسبب وضوحه. فقد كانت الثقافات البشرية تتقارب منذ اختراع الزراعة؛ وكان التقارب أسرع من أي وقت مضى مع بداية الحقبة الصناعية.

والسؤال المثير للجدل هو: ماذا لو أي شيء، يجب أو يمكن أن يفعل بشأنه، إن تجانس الثقافات الإنسانية جزء واحد فقط من منهج واسع في التغيير يجعل العالم مكاناً أقل تنوعاً عما كان عليه.

وتختفي الأجناس البيولوجية بوتيرة أسرع من الماضي، وإن التكنولوجيا التي حصلت مذمومة بشكل واسع.

وقد شعر علماء البيولوجيا بالخطر وأرادوا الحفاظ قدر الإمكان على العديد من الأجناس، من الصعب الدعوة إلى مسار مشابه من التحرك بالنسبة للثقافات الأخرى غير التي نملكها. للعولمة بعض المنافع لكن لها محاذيرها وربما المكان الذي ننطلق منه هو إدراكها أنها موجودة.

obeikandl.com